

النظم والمؤسسات الإسلامية

مؤسسة الخلافة

تنبيه :

إن دراسة مؤسسة الخلافة دراسة شاملة لا يمكن ان تكون مفصلة عن نوعين من الدراسات .

- دراسات تاريخية تتجاوز الاخبار عن الخلفاء وسيرهم لتنفذ إلى الأسباب العميقة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) التي تفسر مختلف أطوار هذه المؤسسة منذ نشأتها إلى روالها .

- دراسات في الفكر السياسي تسعى إلى إجلاء فلسفة الفكر كما مورس في الواقع التاريخي ولا تكتفي بترديد مقالات القدامى لأن هذه المقالات ترتبط غالبا بالصراع على الحكم إثر " الفتنة الكبرى " وترمي عند السنين إلى إثبات شرعية النظام القائم وعند الشيعة إلى إثبات أولية عليّ وولده بالحكم وعند الخوارج إلى تبرير خروجهم على عليّ وثوراتهم على الأمويين والعباسيين .

وما أنجز من أعمال في هذين الميدانين وبالخصوص في الميدان الأول يمكن في نظرنا إلى حد الآن من دراسة مؤسسة الخلافة دراسة شافية ولهذا ولضيق المقام أيضا سنعرض المسألة في خطوطها الكبرى . وحتى يكون العرض واضحا

رأينا تقسيمها إلى قسمين كبيرين نهتم في الأول بتاريخ المؤسسة وفي الثاني ببعض النقاط المتصلة بمسألة الحكم والتي نعتبرها عين الاشكالية .

تاريخ المؤسسة :

نشأ بعد الهجرة إلى يثرب (المدينة) سنة 622 مجتمع إسلامي تحت قيادة الرسول الذي كان يحكم بين المتنازعين منهم ويقودهم في الحرب ويقسم بينهم الغنائم والفيء ⁽¹⁾ استنتج بعضهم أن هذا الجانب من سيرة الرسول عمل حكومي ومظهر للدولة ⁽²⁾ ورأى غيرهم أنه " لم يكن سوى وسيلة تثبيتا للدين وتأييدا للدعوة " ⁽³⁾ وأن ولاية الرسول على المسلمين " ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم " ⁽⁴⁾. والرأي عندنا أن الرسول قام فعلا ببعض مهمات الرئاسة ولكن سلطته كانت روحية دينية أكثر منها دنيوية حكومية وأن الحديث عن دولة الرسول ينفيه الواقع التاريخي إذ لو كان الأمر كذلك لتحدد في عهد الرسول نظام الحكم ولظهرت مؤسسات تثبت قيام دولته لأن الدولة لا يمكن أن تكون بدون مؤسسات والمؤسسة الأولى في تاريخ الإسلام هي مؤسسة الخلافة .

1- الخلافة من نشأتها إلى قيام الدولة الاموية

ظهرت مؤسسة الخلافة لما تولى أبو بكر أمر المسلمين بعد وفاة الرسول فسمي " خليفة رسول الله " | وهذا العبارة تعني الأمير القائم على المسلمين خلفا للرسول بحكم الواقع لا بمقتضى الشرع | وقد استعملت للخلفاء الراشدين

(1) الغنيمة : ما ظفر به المسلمون من الكفار على وجه الغلبة والقهر وتشمل الاسرى والسبائك (النساء والأطفال) والأراضي والأموال . والفيء ما أصابه المسلمون من مال عفوا دون قتال .
(2) صبحي الصالح . النظم الإسلامية من دار العلم للملايين بيروت 1989 (الطبعة السابعة) ص 338 .

(3) علي عبد الرازق ، الاسلام وأصول الحكم بيروت 1972 ص ص 166 - 167

(4) نفس المرجع .

(أبي بكر ، عمر ، عثمان وعلي) دون غيرهم لأسباب سنذكرها بعد حين .

كيف تمّ تعيين أبي بكر وبيعته :

في اليوم الذي توفي فيه النبيّ أي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة للهجرة / 632 م اجتمع نفر من الصحابة ⁽⁵⁾ بسقيفة بني ساعدة بالمدينة لتعيين من سيخلفه فاشتدّ النزاع بين المهاجرين والأنصار . لقد رشّح الأنصار سيّد الخزرج ⁽⁶⁾ سعد بن عبادة فاعترض على هذا الترشيح المهاجرون لأنهم كانوا يرون أنّهم أولى بالخلافة ⁽⁷⁾ فاقترح الأنصار أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ولكن المهاجرين رفضوا هذا الاقتراح وجاء في المصادر السنيّة أنّ الخلاف حسم لما روى أبو بكر الحديث التالي : « الأئمة من قريش ، إذ أقلع الأنصار من التفرد بالخلافة ورجعوا عن المشاركة فيها . وتضيف هذه المصادر أن الصحابيّن أبا عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب بادرا إلى مبايعة أبي بكر فاقتدى بهما الأنصار إلا بعض الخزرجيين وأنّ الهاشميين رغم أنّهم كانوا يعتبرون أنّ الخلافة ينبغي أن تكون فيهم ⁽⁸⁾ بايعوه أيضا إلّا نفرا منهم .

إنّ المصادر لم تخف حدة المنازعة حول خلافة الرسول ولكنّ التفسير الذي تقدّمه في حسم النزاع غير مقنع إذ هي تعتبر نهاية الخلافة باقتناع الأنصار بالحديث الذي رواه أبو بكر وأوّل ما يستوقفنا في هذا التفسير الحديث

(5) تقول الرواية إنّ العباس (عمّ الرسول) وعليّ بن أبي طالب ونفرا من المهاجرين لم يحضروا هذا الاجتماع لأنهم كانوا مشغولين بتجهيز الرسول ودفنه .

(6) الأوس والخزرج من أصل يمّني انتقلوا إلى الحجاز بعد انهيار سدّ مأرب ونزل الأوس في جنوب المدينة ونزل الخزرج في قلب المدينة .

(7) المهاجرون هم أول من دخل الإسلام فلحقهم الضيّم حتّى اضطرّوا إلى ترك ديارهم وأموالهم بمكة والهجرة إلى المدينة .

(8) تقول المصادر السنيّة إنّ العباس بعد دفن الرسول أقبل على أخيه عليّ بن أبي طالب وقال له : « أبسط يدك لنبايعك » ولكنّ عليّا تباطأ في قبول المبايعة حتّى يزِيل من صدر المسلمين ما قد يداخلها من شبهة توارث النبوّة بين آل البيت .

نفسه إذ كيف يعقل أن يكون الرسول أوصى بالخلافة إلى قريش .
والحال أن الإسلام جاء ليحلّ رابطة الدين محلّ العصبية القبلية . لقائل أن يقول إن هذا الحديث مثبت في الصحيحين ولكنّ مسألة صحة الأحاديث كما يراها بعض علماء الدين أنفسهم ⁽⁹⁾ لا يفصل فيها بنقد السند (النقد الخارجي) لذلك نذهب إلى أن هذا الحديث وضع لتبرير انفراد قريش بالخلافة والردّ على الخوارج مثلا الذين كانوا يرون أن الخليفة يمكن أن يكون من غير قريش .
ومن جهة أخرى فإنّ هذا التفسير يسكت عن قصد أو غير قصد عن الأسباب الحقيقية التي مكنت قريش من فرض مرشحها لمنصب الخلافة والتي يمكن أن نحصرها في وزن قريش وسمعتها بين القبائل العربية آنذاك .
لقد كانت قريش أكثر القبائل تنظيما . فكان لها الملأ وهو مجلس القبيلة وكانت لها الندوة التي تفصل فيها شؤون الحرب وكذلك اللّواء الذي يعقد في الحرب دفاعا عن حوزتها . وكانت قريش أيضا أغنى القبائل العربية بفضل قوافلها التجارية ⁽¹⁰⁾ ولذلك كان الرسول يقود بنفسه الغزوات والسرايا لشلّ هذه الحركة التجارية مصدر قوتها ثم إن قريشا استنادا إلى قداسة الكعبة في الجاهلية كسبت سمعة بين القبائل الأخرى وزاد هذه السمعة دعما أنها كانت تقوم بالحجّابة (حفظ مفاتيح الكعبة) والسدانة (خدمة الكعبة) والرفادة (إطعام الفقراء من الحجيج) والسقاية (تقديم الماء للحجيج) وقد استمرت هذه السمعة بعد ظهور الاسلام إذ احتفظت الكعبة بقداستها بعد إخراج الأصنام منها كما احتفظت قريش بالحجّابة والسدانة والسقاية ⁽¹¹⁾ وأخيرا فإنّ الرسول من قريش فزاد قريشا كون الرسول منها وزنا والراجح أنها استغلت هذا

(9) خصّص عبد المجيد الشرفي في كتابه الاسلام والحدائق الدار التونسية للنشر 1990 فصلا (ص 93 . 111) لهذه المسألة استعرض فيه آراء عدد من العلماء والفكرين ومنهم محمّد عبيد ورشيد ورّضا وأحمد أمين .

(10) في القرآن (سورة قريش) إشارة إلى قوافل قريش التجارية نحو اليمن (رحلة الشتاء) والشام (رحلة الصيف) .

(11) انظر أخبار مكة للأزرقي، طبعة مكة 1965 ج 1 ص 194 . 195 و ج 2 ص 58 .

المعطى أيضا في النزاع بينها وبين الأنصار وما يدعم هذا القول النسوبة إلى عمر بن الخطاب في أحد ردوده على الأنصار " لا ترضى العرب أن تؤمركم والنبي من غيركم " (12) .

هذه هي في نظرنا العوامل التي ساعدت المهاجرين بوصفهم من قریش على الانفراد بالخلافة. أما اختيار أبي بكر بالذات فإن المصادر السنية تعلله بكون الرجل أول السابقين إلى الإسلام من الرجال وصاحب النبي في الغار بشهادة القرآن (13) ووالد عائشة ورفيقه في الدعوة إلى الإسلام وهو تفسير مقصور على الجانب الذاتي لا يسمح بمعرفة الأسباب العميقة لهذا الاختيار على أن نفس هذه المصادر تشير إلى دور عمر بن الخطاب في التعيين فتتساءل : إلى أي مدى كان أبو بكر مدينا لعمر بمنصب الخليفة وهل من علاقة بين دوره في سقيفة بني ساعدة وتعيينه من قبل أبي بكر خلفا له ؟

أخيرا وبقطع النظر عن الظروف التي وقع فيها اختيار أبي بكر فإن الخلافة لم تثبت له إلا بعدبيعة في شبه إجماع (14). ومنذ ذلك الحين أصبحت البيعة شرطا من شروط انعقاد الخلافة والبيعة عقد بين الأمير الذي يتعهد بالقيام بحقوق المسلمين والرعية التي تتعهد بطاعته ومؤازرته. على أن طريقة انعقاد الخلافة تغيرت مع الخليفين الموالين عمر وعثمان فقد عين أبو بكر قبل وفاته سنة 13 هـ / 634 م عمر خليفة له ولم يبايع عمر من الصحابة إلا

(12) الرواية لابن الجوزي يوردها صبحى الصالح في كتابه النظم الاسلاميّة ص 258 (مع الاحالة) .

(13) سورة التوبة - الآية 40 - تفسير الطبري .

(14) يقول الماوردي في الأحكام السلطانية ط القاهرة 1960 - ص 7 | بيعة أبي بكر " انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها وهم : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن خضير وبشير بن سعد وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم " . لكن مصادر أخرى تؤكد أن بعض الخزرجيين ونفرا من بني هاشم لم يكن العباس ولا عليّ منهم قد امتنعوا عن المبايعه - انظر تاريخ الطبري - مصر 1928 - ج 1 ص 215 .

الذين كانوا بالمدينة وحسب الرواية المتداولة ⁽¹⁵⁾ حصر عمر قبل وفاته سنة 23 هـ / 644 م الأمر في ستة من كبار الصحابة ليختاروا واحدا من بينهم وهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمان بن عوف ووقع الاختيار على عثمان ⁽¹⁶⁾. فتمت له البيعة ومرة أخرى ساء هذا الاختيار الهاشميين لكنّ عليّاً وجد نفسه مضطراً لمبايعة عثمان كما بايع من قبل أبا بكر وعمر .

نلاحظ إذن أنّ الخلافة انعقدت بوجهين : أحدهما باختبار نفر من الصحابة لواحد من بينهم والثاني بتعيين من الخليفة قبل وفاته وقد أقرّ علماء الدين السنيون كلّاً من الوجهين ⁽¹⁷⁾ رغم اختلافهما لأنهم اعتبروا أنّ عهد الخلفاء الراشدين هو العهد الذهبي وأنّ ما حدث في هذا العهد مثال يحتدى .

بعد هذه الملاحظات في عقد الخلافة لأبي بكر وعمر وعثمان علينا أن نتساءل عن سلتطهم لم تكن هذه السلطة محدّدة بصفة واضحة ودقيقة لكن يمكن أن نقول إنّها مورست في عدة ميادين فقد واصلوا العمل الذي بدأه الرّسول في نشر الاسلام وكان النشاط العسكري وظيفه من وظائفهم فأبو بكر حارب أهل

(15) إنّ هذه الرواية تشير الشكّ إذ هي تقول إنّ عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤه بجامع المدينة عهد إلى الصحابة الستة المذكورين أمر تعيين من يخلفه والسؤال : هل كان له الوقت الكافي قبل وفاته حتّى يقوم بهذا ؟

(16) انسحب من مجلس الشورى طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ولم يشارك في تعيين عثمان إلا عثمان وعليّ وعبد الرحمان بن عوف ويقال إنّ هذا الأخير قام بدور كبير في هذا التعيين .

(17) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 6 و 7 .

الردة⁽¹⁸⁾ وفي أيامه فتحت أجزاء من الشام والعراق وفي عهد عمر فتح باقي الشام وسواد العراق وأكثر أقاليم الفرس كما فتحت مصر وتواصل الفتح في أيام عثمان في اتجاه المشرق والمغرب .

وفي تنظيم العلاقات الاجتماعية التزم الخلفاء الثلاثة بتعاليم القرآن وبسيرة الرسول لكن طرحت بعض المسائل التي لم يرد فيها نص صريح مثل مسألة ميراث الجدّ ومسألة الديّات في الاسنان . فكان البتّ فيها عن طريق الاجتهاد الشخصي⁽¹⁹⁾ .

وطرحت في أيام عمر مسألة التنظيم المالي والإداري فأنشأ ديوان العطاء ومنه أصبحت الأعطيات تدفع إلى مستحقيها من القبائل العربية وقدّر العطاء حسب القرابة من النبي وشهود بدر والمعارك المشهورة كاليرموك والقادسية خلافا لأبي بكر الذي سوّى فيه بين كلّ المستحقين⁽²⁰⁾ كما أحدث ديوان الجند وجعل للمقاتلين المسجلين في الزّمام⁽²¹⁾ مرتبات قارة عوضا عن الغنيمة وقد ارتبط تأسيس ديوان العطاء وديوان الجند بمسألة مداخيل الدولة فكان لعمر الفضل في بعث خزينة الدولة (بيت المال) وفيها يجمع الأموال التي توفرها الغنائم والخراج ومن سعة أفق عمر استفادته من النظم الروميّة (البيزنطية) والفارسيّة في البلاد المفتوحة فترك الدواوين تكتب بلغة أهلها وأبقى على العملة المتداولة ولو كانت عليها نقوش مسيحيّة أو كسروية .

(18) تجمع هذه العبارة القبائل التي خرجت فعلا عن الاسلام والتي ظهر فيه " متنبؤون " مسيلمة باليمامة وطيحة بقبائل بني اسد وبني غطفان بشمال المدينة والتمبنة سجاح بقبيلة تميم قرب البحرين) وقبيلة بني حنيفة التي امتنعت فقط عن دفع الزكاة وقد اثارته محاربة بني حنيفة خلافا وتردد الصحابة في قتالهم رغم امتناعهم عن دفع الزكاة لأنّ بني حنيفة لم يتنكروا للإسلام ولم يكفروا بعد إيمان | الماوردي ، الأحكام السلطانيّة الباب الخامس ص 57 - 58 | ولكنّ أبا بكر أصرّ على قتالهم ولمّا ولي عمر أمر المسلمين أفرج عن المسجونين وعاملهم بلين .

(19) الشهرستاني - الملل والنحل - ط القاهرة ج 1 ص 18 .

(20) هذا المثال يدلّنا مرّة أخرى على أنّ إجماع الصحابة ليس حقيقة تاريخية .

(21) عمر أوّل من أحدث السجلات التي يرسم فيها أسماء المقاتلين .

نلاحظ بما تقدم أنّ سلطة الخليفة مورست في عدّة ميادين : العسكري والقضائي والمالي ونضيف أنها شملت الميدان الديني وبالتحديد الطقوس من ذلك مثلا أنّ عمر أحدث صلاة التراويح .

الفتنة الكبرى :

تفسّر المصادر اشتعال الفتنة بسلوك عثمان الذي " حمل بني أمية على رقاب الناس " وتقدّم على ذلك أمثلة عديدة (22) منها تعيينه الكثير منهم مكان العمال الذين ولّاهم عمر والذين كانوا من أوّل الناس إسلاما ومنها أيضا إغداقه الأموال الطائلة على ذوي قرباء من بيت المال على أنّ نفس هذه المصادر تقرّ بآته في عهد عثمان تواصلت الفتوحات وامتلا بيت المال وقويت شوكة الاسلام لذلك نرى أنّ سبب اشتعال نار الفتنة لا يكمن في سلوك عثمان الذي أثار حفيظة العائلات الأرستقراطية العربية المنافسة بقدر ما يكمن في تصادم تصوّرين للحكم الأول يرى وجوب احترام المبادئ الأخلاقية وتقديم أوّل الناس إسلاما على غيرهم والثاني يعتبر أوّلا وبالذات نجاعة الجهاز الحكومي .

وانتهت الفتنة (23) كما هو معروف بمقتل عثمان بالمدينة سنة 35 هـ / 656 م وبمبايعة علي بن أبي طالب فحرّضه أتباعه على عزل العمال الذين عينهم عثمان فأذعنوا جميعا إلا معاوية في الشام فقد طفق يحضّ الناس على الثار للخليفة المقتول " ظلما " .

(22) أمر عثمان بجمع القرآن فكان المصحف المعروف بمصحف عثمان الذي لاقى معارضة وفي مقدّمته عبد الله بن مسعود وتقول الرواية إنّ عبد الله هذا قد احتفظ بمصحفه رغم الضيقة والتهديد .

لقد قام جدال حادّ حول شخصيّة عثمان وسلوكه بين أهل السنة والشيعة وتقول الشيعة إنّ عثمان لم ينفذ الحدّ في والي البصرة الوليد بن عقبة الذي خرج للناس في حالة سكر وآته أحدث بدعا في العبادات - انظر ابن تيمية منهاج السنة النبوية القاهرة 1321 هـ ج 3 ص 173 - 186 و 190 - 195 و 198 - 207 و 204 - 206 .

(23) بدأت الفتنة بمصر ثم امتدّت إلى العراق ومن الذين الهبوا ناراها الأشتر (بالعراق) ومحمد ابن أبي بكر (بمصر) - عن هذه الفتنة ومراحلها انظر طه حسين، الفتنة الكبرى .

ثم كانت معركة صفّين التي كادت تنتهي بهزيمة معاوية لولا دهاؤه فقد طلب التحكيم عملاً بما جاء في القرآن ⁽²⁴⁾ وإضطرّ علي إلى قبول هذا الطلب تحت ضغط جماعة من جيشه فاعترضت جماعة أخرى على التحكيم سمّيت فيما بعد بفرقة الخوارج، وهي أوّل فرقة في تاريخ الاسلام، وكانت ترى أنّ علياً إذ "حكّم الرجال في دين الله وأوامره" كافر. وبقطع النظر عن التفكير الذي لا مبرّر له إطلاقاً فإنّ موقفهم ينطوي على تصوّر للحكم مفاده أنّ الخليفة مسؤول عن أعماله يحاسب عليها وهو تصوّر من شأنه أن يحدّ من الحكم المطلق. وفي سنة 40 هـ / 661 م اغتال عبد الرحمان بن ملجم وهو من الخوارج علياً بالكوفة فبوع الحسن بعد وفاة أبيه بيومين ولكنه بعد ستة أشهر خلع نفسه وسلّم الأمر إلى معاوية الذي بوع في شهر ربيع الأوّل سنة 41 هـ بالكوفة ثمّ دخل الحجاز وبعدها بقليل حوّل عاصمة الخلافة إلى دمشق .

2 - الخلافة في أيام الأمويين :

حوّل معاوية (ت سنة 60 هـ) الخلافة ملكاً إذ أخذ بنفسه البيعة لابنه يزيد (ت 64 هـ) من وفود الأمصار وبنفس الطريقة كانت بيعة معاوية بن يزيد الذي دامت خلافته أربعين يوماً فقط ولكن عند موت معاوية الثاني هذا طرحت مسألة الخلافة من جديد ومارس الأسياد من العرب المجتمعين بالجابية حقهم في اختيار الخليفة الجديد دون أن يحاولوا المسّ من الأمويين فعينوا مروان بن الحكم الذي بوع سنة 65 للهجرة بذلك تحوّلت الخلافة من فرع أمويّ (بني سفيان) إلى فرع أموي آخر (بني مروان) .

ومنذ أيام عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ) جرت العادة أن يترك الخليفة وثيقة ينصّ فيها على اسم من يخلفه وتسمّى هذه الوثيقة العهد ويسمّى

(24) إنّ الله تعالى أوصى بالتحكيم في قوله " وإنّ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإنّ بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله فإنّ فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين " .

الشخص المعين وليّ العهد بصفته المستفيد من العهد بينه وبين الأمة وأصبح العهد في انعقاد الخلافة يحتلّ المرتبة الأولى قبل البيعة التي نزلت إلى المرتبة الثانية وكان الخليفة حرّاً في تعيين أحد أبنائه أو أخيه أو ابن عمّه أو حتّى شخصين من عائلته ولكن حَجَرَ عليه تعيين ابنه من أمّ ولد (المرأة غير العربيّة) ولذلك مثلاً كان من المستحيل على مسلمة بن عبد الملك أن يرث الملك رغم ما قام به من عظيم الأعمال في أيام والده .

وقد أدى هذان الاستحداثان (تحوّل الخلافة ملكاً وولاية العهد) إلى قيام نزاعات وانتفاضات عديدة يطول شرحها منها ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز سنة 61 هـ (في عهد يزيد بن معاوية) التي انتهت بقتله واقتحام المدينة ونهبها ومنها أيضاً ثورات الخوارج الذين استطاعوا أن يقيموا إمارة بسجستان (جنوب خراسان) على رأسها قطرى بن الفجاءة الذي تلقّب بأمير المؤمنين وصكّ النقود باسمه مدّة عشرة أعوام (من 69 إلى 79 هـ / 688 - 699 م) على أنّ أهمّ الحركات الثوريّة هي الحركة الشيعة التي كانت ترى أنّ الخلافة يجب أن تكون في ولد علي بن أبي طالب ⁽²⁵⁾ والحركة العباسيّة التي كانت ترى أنّ الخلافة يجب أن تكون في عائلة الرسول بصفة عامّة .

وأمام هذه المعارضة الشديدة التي اتخذت أشكالاً مختلفة مثل رمي الأمويين بالمجون والتخلّي عن المبادئ الإسلاميّة أو الطعن في شرعيّة حكمهم والخروج عليهم سعى الأمويون إلى تبرير النظام الملكي الذي أقاموه وتكفل شعراؤهم بهذه المهمّة فأرجعوا حقّ الأمويين في الحكم إلى عثمان المقتول " ظلماً " وذهب بعض المتأخّرين إلى أنّ أمتيّة تسلّموا " إرث الرسول " وظهرت أحاديث موضوعة ينبئُ فيها الرسول بقيام دولتهم وانتشرت عبارة " خليفة

(25) من ثورات الشيعة العديدة نذكر خاصّة ثورة الحسين بن علي بالعراق سنة 61 هـ والتي انتهت بمصرعه بكر بلاء ثم ثورة المختار لفائدة محمّد بن الحنفية (من ولد علي من غير فاطمة) بالكوفة في عهد عبد الملك مروان (ت 86 هـ) وثورة زيد بن علي بالكوفة أيضاً سنة 122 هـ / 740 م .

الله " (26) التي تعني أن حكمهم بتفويض إلهي والتي ترمي إلى ترسيخ فكرة طاعة الخليفة طاعة غير مشروطة باسم الدين . فالحجاج بن يوسف في خطبة له ينعت عبد الملك بن مروان بخليفة الله في الأرض وتكرر عبارة " خليفة الله " في العهود (وثائق تعيين ولاية العهد) وفي الخطب التي تلقى قبل مبايعة الخليفة الجديد وقد جَوَزَ بعض العلماء استعمال هذه العبارة بدعوى أن الخليفة يقوم بحقوق الله في خلقه ولكن جمهور العلماء امتنعوا من جواز ذلك لأنهم تفتنوا إلى ما تنطوى عليه العبارة من تحويل الخلافة إلى حكم تيوقراطي يخول للخليفة حق التشريع ويوجب الطاعة باسم الإيمان فقالوا : " يستخلف من يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت " (27) ولأنهم تفتنوا كذلك إلى أن الحكم التيوقراطي من شأنه أن يحرمهم من سلطتهم المعنوية بوصفهم المشرعين وحفظة الدين وممثليه الرسميين .

3 - الخلافة العباسية إلى أواخر القرن الثالث :

نشطت الدعوة العباسية (نسبة إلى العباس عم الرسول) في أيام عمر بن عبد العزيز لما أرسل محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المجموعة الأولى من الدعاة إلى خراسان حوالي سنة 102 هـ / 718 م ، وازدادت نشاطا في أيام الخليفة مروان بن محمد (ت 132 هـ) مع أبي سلامة وأبي مسلم الخرساني . فكانت الدعوة باسم الهاشمين أي كل عائلة الرسول : ولد أبي طالب والعباس وانطلقت الثورة من هراة (بايران) وانتهت بالقضاء على الدولة

(26) وردت كلمة خليفة في القرآن مرتين الأولى في شأن آدم " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، (السورة 2 - الآية 28) والثانية في حق داود " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيظلك عن سبيل الله " (السورة 38 - الآية 25) فاستغلت الآيتان لتبرير الحكم التيوقراطي (أي المستمد من الله) والمعبر عنه بخليفة الله والحال أن المفسر المفسر من ذكر آدم الجنس البشري كله (انظر تفسير الزمخشري وكذلك تفسير الرازي) وأن داود لم يكن ملكا فقط بل كان كذلك نبيا .

(27) الماوردي > الأحكام السلطانية الطبعة المذكورة ص 15 .

الأموية سنة 132 هـ / 750 م وبويع أول خليفة عباسي (أبو العباس السفاح) في شهر ربيع الثاني 132 هـ بالكوفة .

لكن لنن تمكّن العباسيون من الاستيلاء على الحكم فإنّ دعوتهم باسم الهاشمين جميعا كانت تحمل في حدّ ذاتها بذور الشقاق بينهم وبين الشيعة الذين كانوا يرون أنّ الخلافة يجب أن تكون في ولد عليّ. ولذلك سعى الخلفاء العباسيون إلى إثبات شرعية حكمهم ففي أول الأمر كانت حجّتهم أنّهم من عائلة الرّسول. ولكن هذه الحجّة غير كافية لأنّ ولد عليّ أيضا من عائلة الرّسول فأتى الخليفة الثاني المنصور (ت 158 هـ) بحجّة أخرى مستمدة من أحكام الإرث وهي أن الذكور من سلالة العباس أولى من " أبناء البنت " فاطمة أي الذكور من ولد الحسن والحسين وفي أيام المهدي (ت 169 هـ) الخليفة الثالث ظهرت أحاديث موضوعة تزعم أنّ الرّسول أوصى بالخلافة إلى عمه العباس فأطّب شعراء البلاط في إبراز مناقبه ولما ينس الشيعة من بلوغ هدفهم بالطرق السلمية قاموا بثورات عديدة منها ثورة قادها اخوان من ولد الحسن بن أبي طالب بالمدينة وبالبصرة سنة 145 هـ وقتلا فيها .

وكاد المأمون (ت 218 هـ) أن يحول الخلافة من بني العباس إلي ولد علي بن أبي طالب لما عزم على تعيين علي الرضا (الإمام التاس ت 202 هـ) خلفا له سنة 201 / 817 وكان يقصد من وراء هذا تطبيق ما جاء في الدّعوة العباسية عند انطلاقتها والتمكين من اختيار الخليفة من ولد علي بن أبي طالب أو من ولد العباس حتى يضع حدّا للخلاف بين الفرعين فعظم هذا الموقف على أهل العراق عامّة وعلى العباسيين خاصّة لزوال الملك عنهم فاضطر المأمون إلى التخلّي عن رأيه بما أدي إلى القطيعة نهائيا بين العباسيين والشيعة وإلى قيام ثورات عديدة كالتي وقعت باليمن سنة 207 هـ / 882 أو التي اندلعت بخراسان سنة 209 هـ / 834 م .

ونبقى في المسألة الشرعية لنضيف أنّ العباسيين أوهموا الناس أنّ سلطتهم مستمدة من الدّين شأنهم في هذا شأن الأمويين وتقول بعض الروايات إنّ المنصور نعت نفسه بسلطان الله في أرضه ثم إنّ الألقاب التي إتخذها الخلفاء

العباسيون تعتبر هي نفسها عن حرصهم على إبراز طابع حكمهم التيوقراطي فالمنصور منصور بالله والمهدي هداة الله . والألقاب الأخرى مثل الأمين والمأمون والواثق وإن هي تلحّ خاصّة على التقوى تبرز أيضا الصلة بين الخليفة وبين الله الذي منه يستمدّ سلطته ، وأخيرا لم ير الخلفاء العباسيون منذ أيام المأمون حرجا في أن يدعى الواحد منهم بالإمام ⁽²⁸⁾ وكانوا في ما قبل يحترزون من هذا اللقب لغلبة الطابع الشيعي عليه .

وأما طريقة انعقاد الخلافة فقد كانت بعهد الخليفة من قبل فكان يختار عادة واحدا من أبنائه سواء أكان هذا الابن من أمّ عربيّة أم من أمّ ولد ⁽²⁹⁾ شريطة أن يكون المعيّن بلغ سنّ الرشد ولم تحدّد هذه السنّ بصفة نهائية إلّا سنة 296 هـ / 908 م لما عيّن المقتدر وعمره ثلاث عشرة سنة . وكان بإمكان الخليفة أيضا مثلما هو الشأن عند الأمويين تعيين فرد من عائلته غير ابنه أو إسناد ولاية العهد إلى أكثر من واحد وهذا ما حصل فعلا مع هارون الرشيد الذي أمر بتعليق العهد بالكعبة سنة 186 هـ / 802 م وفيه ينصّ على تقسيم ملكه بين الأمين والمأمون وعلى حقوق كلّ منهما وواجباته نحو الآخر وكذلك مع المتوكل الذي أسند ولاية العهد إلى بنيه الثلاثة : المنتصر وأبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد .

وقد أثار تعيين شخصين نزاعات تصل إلى حدّ القتال مثل ما حدث بين الأمين والمأمون أو على الأقل إلى فسخ العهد ذلك أنّ الخليفة الجديد ما إن يرتقي العرش حتى يسعى غالبا إلى فسخ العهد ليحلّ ابنه محلّ وليّ العهد

(28) يفضل الفقهاء استعمال كلمة إمام وإمامة لما في الكلمتين من شحنة دينيّة واصطلحوا على تسمية إمامة الصلّاة بالإمامة الصغرى تمييزا لها عن الإمامة الكبرى التي لا تكون إلّا لرئيس المسلمين الأعلى . أمّا الشيعة فهم يستعملون كلمة إمام لأنّ رئيس المسلمين عندهم هو أوّلا وبالذات رئيس ديني (انظر الصفحات الموالية ، باب الخلافة الفاطميّة) .

(29) هذا خلافا لما قلناه عن ولاية العهد عند الأمويين .

الثاني الذي عينه الخليفة السابق. ولما كانت تنقصه الوسائل القانونية لبلوغ هدفه يعمد إلى أشكال مختلفة من الضغط حتى يجبر وليّ العهد الثاني على التخلّي عن حقه .

ومن المشاكل المرتبطة بولاية العهد أيضا موت الخليفة دون أن يعيّن وليّ العهد. فعند موت الواثق اجتمع مجلس مضيق ضمّ قاضي القضاة والوزير ونفرا من قوّاد الجيش وعينوا المتوكل (ت 247 هـ / 861 م) ولما مرض المكتفي سنة 296 هـ / 908 م قام بتعيين الخليفة الجديد المقدر (320 هـ / 932 م) والوزير ورؤساء الدواوين وهذان المثالان يدلّان على أنّ تركيبة المجلس المضيق لم تكن تخضع لقاعدة مضبوطة ينصّ عليها القانون وأنّها تغيّرت حسب الظروف .

سلطة الخليفة العباسي من القرن الثاني إلى عهد الأمراء :

الخليفة هو الإمام الأوّل يؤمّ الناس في صلاة الجمعة بجامع من جوامع العاصمة لكن في آخر القرن الثالث نوبّ من يقوم عنه بهذه المهمة في كلّ جوامع العاصمة فكان لا يؤمّ الناس إلّا بجامع قصره .

والخليفة هو حافظ الدّين " على أصوله المستقرّة وما أجمع عليه سلف الأئمّة ⁽³⁰⁾ . وبصفته هذه كان من واجبه مقاومة البدع وردع أصحابها . عبارة الحفاظ على الدّين تعني أنه لا يدخل في مسألة أصول الدّين والتأويل ولكن الواقع التاريخي يشبّه أنّ بعض الخلفاء تدخلوا في هذه المسألة ومنهم مثلا المأمون الذي جعل من الاعتزال المذهب الرسمي . وعبارة أصول الدّين تعني أساسا القرآن والسنة وأما بقية الجملة " وما أجمع عليه سلف الأئمّة " فالمراد بها إجماع الصحابة أوّلا وبالذات وليس في نيتنا هنا عرض كلّ المشاكل التي تثيرها قولة الماوردي والتي تتعلّق بجمع القرآن وتأويله وتدوين السنة ونصيب الصحيح منها والموضوع وبالإجماع الذي هو أصل نظري أكثر ممّا كان حقيقة

(30) العبارة للماوردي ، الأحكام السلطانية - الطبعة المذكورة ص 15 .

تاريخية منذ عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم⁽³¹⁾ وإنما نريد فقط أن نقف عند عبارة البدعة فهذه الكلمة من معانيها المخالفة في فهم القرآن المألوف وإعادة النظر في السنة. والسؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو : ما هي السلطة التي كانت تحدّد الإيمان القويم والفهم الصحيح " وتُشهر بالمخالفين وترميهم بالزندقة ؟ إنها سلطة علماء الدين (الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين) الذي اعتبروا أن آراءهم ومقالاتهم هي السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة . والسؤال الثاني : لماذا كان الحكماء يقفون إلى جانبهم في الحملات ضدّ المخالفين ؟ لقد كان بين نخبة النفوذ (الحكماء) ونخبة المعرفة (علماء الدين) تضامن عضويّ فالحكام كانوا في حاجة إلى علماء الدين لصنع سلطتهم بصيغة الشرعية الدينية⁽³²⁾ وعلماء الدين كانوا في حاجة إلى الحكماء لأنّ هؤلاء يضمنون لهم وضعهم الاجتماعي ومكاسبهم المادية والمعنوية .

- الخليفة هو المشرف على الشؤون السياسية والمالية يعيّن الوزير والولاة والعمال المكلفين بجمع الجباية ويراقب مداخيل بيت المال والمصاريف المتكوّنة أساسا من أجور الموظفين والجند والنشأت من أجل المصلحة العامة .

- الخليفة هو المسؤول عن سير القضاء وتنفيذ الأحكام ولكنه لا يتدخل في سنّها لأنّ سنّ الأحكام من مشمولات الفقهاء . فكان يُعيّن القضاة⁽³³⁾ ويفصل في حالات الطعن في حكمهم كما كان بترأس ديوان المظالم وهو ديوان ينظر في كل " حكم يعجز عنه القاضي " كأن يكون النزاع بين ممثلي الإدارة (الوالي أو العامل مثلا) والرجل من العامة على أن الخلفاء بصفة عامة عينوا نوابا عنهم للإشراف على هذا الديوان .

(31) لقد اتينا بشواهد على هذا في الصفحات السابقة .

(32) اعتبر علماء الدين أنّ الخلافه واجبة شرعا . سنعود إلى هذه النقطة في القسم الكبير الثاني من هذا العرض .

(33) سنعود إلى مؤسسة القضاء في صفحات لاحقة .

- الخليفة هو حامي المملكة من هجومات الأعداء وعليه الخروج بنفسه للجهاد وهذا ما فعله مثلا الرشيد والمأمون ولكن بعد المأمون جرت العادة أن يعين الخليفة من ينوبه في هذه المهمة .

- الخليفة هو حافظ الأمن داخل المملكة .

نلاحظ بما تقدّم أنّ سلطة الخليفة كانت تشمل ميادين عديدة ولكن نظرا إلى تعدّد المسؤوليات تخلّى عن التسيير المباشر ويتّضح هذا خاصة عندما أصبحت خطة الوزير خطة قارّة ⁽³⁴⁾ فكان الخليفة يوكل إليه تسيير شؤون الدولة طبقا لسياسة وافق عليها .

علامات السلطنة :

اتّخذ العباسيون اللون الأسود لونا رسميًا ⁽³⁵⁾ . وبذلك خالفوا الأمويين الذي كان عندهم اللون الأبيض اللون الرسمي وظهرت علامات جديدة عند جلوس الخليفة للناس أو خروجه من القصر فكان إذا جلس للناس يلبس بردة يقال إنها بردة الرسول ويده قضيب وعلى رأسه قلنسوة وكان استقبال الزائرين والوفود الرسميّة يخضع لترتيب دقيق يفرض عليهم فيما يفرض من علامات الاحترام تقبيل الأرض أو تقبيل يده وإذا خرج من القصر سار أمامه صاحب الشرطة ويده حربة هي في آن واحد رمز السلطنة وتذكير بسنة الرسول وما يمكن ملاحظته في هذه العلامات هو الجمع بين الاقتداء بالسنة وتبني عادات عجميّة (القلنسوة - تقبيل الأرض - تقبيل اليد) .

(34) نشأت هذه الخطة في أيام العباسيين ولكنها لم تكن قارّة في أوّل الأمر سنفصل القول في هذه الخطة في صفحات لاحقة .

(35) اختير هذا اللون لأنّ الرسول لما فتح مكة كان يلبس ثوبا اسود .

4 . الخلافة من القرن الرابع إلى سقوطها ببغداد (656 هـ / 1258) :

بدأ عهد الأمراء سنة 326 هـ لما فوّض الخليفة مكرها سلطته إلى القائد العسكري⁽³⁶⁾ ابن رائق الذي سمّي " أمير الأمراء " ومنذ هذا التاريخ انقطع الخليفة عن الإشراف على شؤون الدولة وحتّى عن مراقبة من يتولّون تسييرها. فبعد دخول البويهيين⁽³⁷⁾ بغداد سنة 334 هـ تعاقب على الحكم الأمراء منهم دون أن يكون للخليفة أيّ دخل في اختيارهم. فكان يعقد لكلّ أمير جديد عن اضطرار⁽³⁸⁾ ويفوّض له تدبير شؤون الدولة وقد احتفظ - نظرياً على الأقلّ - بحق تعيين أعوان الدولة واستطاع أن يمارس هذا الحقّ في حالات قليلة جداً منها أنّ الأمير البويهي بهاء الدولة⁽³⁹⁾ (ت 403 هـ / 1012 م) اختار سنة 394 هـ أبا أحمد الموسوي (من ولد الحسين) ليكون أمير الحجّ والمشرق على ديوان المظالم ونقيب (أي رئيس) العلويين وقاضي القضاة ولكن الخليفة المقتدر اعترض على تولية أحمد هذا منصب قاضي القضاة رغم ضغط الأمير وعيّن شخصاً آخر ومن هذا المثال يمكن أن نستنتج أمرين : الأوّل هو أنّ سلطة الخليفة في ميدان القضاء لم تنزل قائمة والثاني أنّ الأمير البويهي كان يتدخل في الشؤون الدينيّة . ولعلّ أوضح مثال للتدليل على هذا

(36) بدأ تدخل القوّاد العسكريين وأغلبهم من العجم في شؤون الدولة منذ النصف الثاني من القرن الثالث فكثر الشغب وتعدّدت الدّسائس وتكرّر خلع الخلفاء أو قتلهم : خلع المستعين (252 هـ) والعتز (255 هـ) وقل المهدي (256 هـ) وخلع المقتدر (296 هـ) والقاهر (322 هـ 9 .

(37) البويهيون مرتزقة من الدّيلم استغلّوا ضعف الخلافة وانقسام الملكة لبسط نفوذهم على جزء كبير من إيران ثمّ دخلوا بغداد فالت إليهم السّلطة الفعلية ودام حكمهم بها من 334 هـ إلى سنة 447 هـ .

(38) يسمّى الماوردي هذا النوع من الإمارة إمارة استيلاء انظر الأحكام السلطانيّة الباب الثالث ص 30 وما بعدها .

(39) كلّ أمراء بني بويه يحملون لقباً فيه كلمة دولة : معزّ الدولة ، ركن الدولة ، عضد الدولة ...

التدخل أن الأمير معز الدولة (ت 356 هـ) أمر بأن يحتفل بصفة رسمية
بيوم عدير خم (18 ذو الحجة) وبيوم عاشوراء (10 محرم) وهما عيدان
شيعة .

٢ . علاقة الخلفاء بالأمراء البويهيين :

تواصل الاستخفاف بالخليفة في أيام بني بويه فأحمد بن
بويه (معز الدولة) بعد دخوله بغداد (334 هـ) والحصول من المستكفي
على التفويض الذي به اكتسب الشرعية أمر بسمل عيني الخليفة حتى يصبح
قاصرا عن أداء وظيفته لأن ذهاب البصر يمنع من الخلافة (40) وعوضه بالمطيع
الذي خلع فيما بعد وتكررت ظاهرة الخلع فكان الأمير البويهي إذا عزم على
تعويض الخليفة بغيره من العباسيين يجمع لهذا الغرض مجلسا مضيقا يضم كبار
الدولة وبعض الفقهاء وأفراد من العائلات العباسية والعلوية فيتم له ما أراد لأن
رأيه هو الرأي الحاسم . والمقصود من عملية الخلع بث الرعب في قلوب الخلفاء
وحملهم على الطاعة في كل ما يريده الأمراء على أن هذه العملية لم تمكنهم
دوما من تحقيق هذه الغاية بل ظهرت من بعض الخلفاء محاولة للوقوف في
وجه البويهيين واسترجاع نفوذهم منهم ففي قصر الخليفة القادر تليت سنة
409 هـ / 1019 م وثيقة تعرف بالقادرية تنص على أن مذهب الدولة
الرسمي هو المذهب السنّي الحنبلي (41) وتشجب الاعتزال والتشيع وقراءة
هذه الوثيقة في حفل بهيج تعبّر عن معارضة الخليفة لسياسة البويهيين وعن
نيته في استرجاع سلطته . وقد شجع القادر على اتخاذ هذا الموقف رسائل

(40) يفصل الماوردي الكلام | الأحكام السلطانية ص 17 وما بعد | في ما يخرج بالخليفة عن
الإمامة ويقسم الموانع إلى قسمين كبيرين : الجرح في عدالة الخليفة والنقص في بدنه ودرج في
النقص في البدن زوال العقل وذهاب البصر .

(41) يغلب على القادرية الطابع الحنبلي لأن الخنابلة في القرن الرابع كانوا قوة هامة ببغداد .

أحمد بن سبكتكين⁽⁴²⁾ التي أكد فيها صاحبها تعلّقه بالمذهب السنّي وحرصه على الدّفاع عن الخلافة العباسيّة وتمت قراءة القادرية مرّة أخرى سنة 433 / 1042 في أيّام القائم الذي استغلّ تناحر البويهيّين ليعلن بنفس الطريقة عن معارضته لسياستهم وكان يعاضده في موقفه هذا أهل السنة ببغداد ومنهم القاضي الشافعي الماوردي (ت 450 / 1058) صاحب الأحكام السلطانيّة .

ـ علاقة الخلفاء بالسلطين السلجوقيين⁽⁴³⁾

لم يتغيّر وضع الخليفة في أيّام السّلاجقة عمّا كان عليه في فترة البويهيّين. فكان السلطان⁽⁴⁴⁾ هو المسير لشؤون الدولة بتفويض من الخليفة المغلوب على أمره وبات تعيين الخلفاء من مشمولات السلاطين وحدهم . وهذا التفويض يشمل المشرق والمغرب ويظهر هذا في تسمية تغريل بك أوّل سلطان سلجوقي بملك المشرق والمغرب .

ولئن كان السّلاجقة سنيّين فإنّ مذهبهم الذي هو مزيج من مقالات الشافعيّ مقالات الأشعريّ يختلف عن مذهب ابن حنبل الذي كان يتمسّك به الخلفاء. وهذا الاختلاف دينيّ سياسيّ⁽⁴⁵⁾ ويدلّ على ذلك أنّ وزير السّلاجقة

(42) هو مؤسس الدولة الغزنوية بأفغانستان والسند (باكستان اليوم) ودامت هذه الدولة من 351 هـ / 902 م إلى 582 هـ / 1186 م .

(43) دخل السّلاجقيون وهم من الأتراك - بغداد سنة 447 هـ وحلّوا محلّ البويهيّين .

(44) لعلّ الغرض من اختيار هذا اللقب التأكيد على أنّ الأمراء السّلاجقة هم وحدهم الذين فوّض لهم الخلفاء سلطتهم كاملة .

(45) كان الصّراع حادّاً بين الحنابلة والأشعريّين ويمكن في شيء من التّبسيط أن نرجع سبب الصّراع العقائدي إلى أنّ ابن حنبل (ت 241 / 855) كان يدعو إلى التمسّك بحرفيّة النصّ القرآني ويرفض التّأويل وإلى التقيّد بالسّنة كما أنّه كان ينقد نقداً شديداً علم الكلام أمّا الأشعريّ (ت حوالي 324 / 935) فكان يدافع عن شرعيّة علم الكلام والتّأويل ولا يلجأ في مقالاته إلى السّنة إلّا في حالات قليلة .

المشهور نظام الملك (485 / 1092) أسس ببغداد سنة 469 هـ 1067م المدرسة النظامية⁽⁴⁶⁾ لدعم الاتجاه الأشعري وتكوين الطلبة تكويناً يجعل منهم موظفين مخلصين للسلاجقة .

ورغم الظروف الصعبة فإنّ الخلفاء لم ينفكوا يسعون لاسترجاع سلطتهم يؤازرهم في سعيهم الحنابلة خاصة ، ففي سنة 460 / 1067 . 1068 عزل الخليفة القائم وزيراً كان لعبة بيد السلطان ... ألب أرسلان وفي سنة 485 / 1092 تمكن الخليفة المسترشد من تكوين جيش ولكنّ هذا الجيش لم يكن من القوة ليصمد أمام جيش السلطان مسعود فوق المسترشد في الأسر وفي سنة 547 / 1152 وفقّ المقتفي في بسط نفوذه على العراق بعد أن أطرده ممثل السلطان من بغداد وتخلّص من المرتزقة الأتراك والفرس وعوّضهم بمماليك يونانيين وأرمنيين وقد أعانته على كلّ هذا وزيره ابن هبيرة . فهذا الفقيه الحنبلي كرّس كلّ جهوده لإعادة الاعتبار للخلافة وتخليصها من قبضة السلاجقة وكان في نشاطه السياسي ومؤلفاته يسعى إلى توحيد الملة حول عقيدة السلف الصالح ولذلك عامل المذاهب السنية على قدم المساواة وحاول جلب العناصر غير المتطرفة من الشيعة .

وواصل الخليفة الناصر (ت 622 / 1225) سياسة ابن هبيرة ولكن باستعمال وسائل أخرى . كان هدفه توحيد الأمة حول شخصه بوصفه خليفة رسول الله وإمام المسلمين المتضلع في علوم الدين ولبلوغ هذا الهدف أعاد تنظيم الفتوة لصالحه وجعل منها مجموعات منظمة تنظيماً تراتيبياً بين كلّ المنخرطين فيها وبينه عقد البيعة ومثل أعلى مشترك في التعاون الأخوي والصفاء الأخلاقي وهذا التنظيم لا يقتصر على مذهب دون آخر ولا على فرقة دون أخرى أو تيار ديني على آخر بل هو جامع لها كلّها يضمّ أهل السنة والشيعة والمتصوفين .

(46) أسست مدارس أخرى تحمل نفس الاسم بالشرق في عهد السلاجقة مثل المدرسة النظامية بشيراز .

وإستطاع الناصر إخضاع بعض طغول الأمراء المحليين ببايران وشمال العراق (47) ثم التخلّص سنة 590 / 1194 من بك الثاني (آخر السلاطين السلجوقيين بالعراق) ولكن مؤسسة الخلافة بقيت هشة لسببين اثنين الأول هو أنّ التصالح بين أهل السنة والشيعة لم يحصل والثاني كثرة الأمراء المستبدّين بإماراتهم .

وأخيرا فإنّ الناصر في صراعه ضدّ السلاجقة استعان بالماغول فأتاح لهم الفرصة للتدخل في شؤون المسلمين ولم يمرّ زمن طويل حتى دخلوا بغداد وقتلوا آخر خليفة بها (المستعصم) في صفر 656 / فيفري 1258 وبذلك زالت الخلافة العباسيّة ببغداد وكان لزوالتها أثر عميق في نفوس المسلمين رغم ما أصابها من وهن ذلك لأنّ الخليفة وإن فقد سلطته كان رمز الوحدة ومصدر الشرعيّة فالأمراء والسلاطين في العالم الاسلامي وفي مختلف العصور (48) كانوا حريصين على اكتساب الشرعيّة من الخليفة ولا يتمّ لهم ذلك إلاّ بالحصول على تفويض منه (49). وقبل أن نواصل الحديث عن آمال الخلافة العباسيّة بعد قتل الخليفة المستعصم لا بدّ لنا من أن نتعرّض إلى الخلافة الأمويّة بالأندلس والخلافة بافريقيّة والخلافة الموحديّة بالمغرب .

ـ الخلافة الأمويّة بالأندلس :

عرفت الأندلس ثلاث مراحل في تاريخها السياسي : عهد الولاة (94 - 138 هـ) وعهد الأمراء (138 - 300 هـ) وعهد الخلفاء (300 - 422 هـ) .

-
- (47) إمارات تركيّة صغيرة والخضوع يتمثّل في الحصول على البيعة .
- (48) باستثناء الأمويين بالأندلس ابتداء من عهد عبد الرحمان الثالث والفاطميّين والموحدين وبعض الأمراء بالشرق .
- (49) نسوق في هذا المجال مثالين : مثال صلاح الدّين الأيوبي الذي حصل على تفويض من الخليفة سنة 576 / 1181 ومثال يوسف بن تشرّيف مؤسس الدّولة المرابطيّة الذي ألّقِبَ بأمير المسلمين ولكنّه حرص على أن يحصل على موافقة الخليفة العبّاسي في اتخاذ هذا اللّقب .

كان الأمراء الأمويين لا يعترفون بسلطة الخليفة العباسي ولكنهم لم يمنحوا ذكر اسمه في خطبة الجمعة وذلك إلى سنة 316 / 928 وهي السنة التي اتخذ فيها عبد الرحمن الثالث لقب أمير المؤمنين وكان غرضه من إتخاذ هذا اللقب الإعلان عن أنه هو الخليفة. وقد دعاه إلى إتخاذ هذا الموقف ضعف الخلافة العباسية وظهور الخلافة الفاطمية الشيعية بافريقية التي كانت تهدد مملكته فعزم على أن يقاومها سياسياً وعسكرياً فيكون حرباً السنة وزعيمها .

وقد أقام الأمويون بالأندلس شرعية حكمهم على الوراثة بوصفهم من سلالة خلفاء بني أمية بالشرق ورثوا الشرعية عن عثمان بن عفان ويذهب ابن بسام في الذخيرة إلى أن الخلفاء الأمويين من أهل الرسول لكونهم من قريش ولتأكيد تواصل الخلافة الأموية اتخذ الخلفاء الأندلسيون من اللون الأبيض اللون الرسمي .

والخلافة عندهم إرث يرثه الابن عن والده مهما كان سنّه وهي تنعقد بالبيعة والخليفة الذي عادة ما تطلق عليه عبارة خليفة الله يباشر بنفسه شؤون الدولة ولكن في النصف الثاني من القرن الرابع تغير الوضع إذ فوّض هشام الثاني (ت 370 هـ) أمر التسيير إلى الحاجب (ومعنى الكلمة في الأندلس الوزير) محمد بن أبي عامر الملقب بالنصور الذي حكم الأندلس من 370 إلى 392 هـ وعند موته خلفه ابنه الذي توفي سنة 399 هـ . وهذه الظاهرة تشبه إلى حد بعيد ما حدث في المشرق من استبداد الأمراء بالحكم مع الفرق أنها تواصلت في المشرق إلى سنة 656 هـ في حين أنها لم تدم طويلاً في الأندلس لأن الخلافة الأموية زالت سنة 422 / 1031 في خضم الصراعات بين الأمراء الأمويين أنفسهم من جهة وبين أبناء محمد بن أبي عامر من جهة أخرى وبين هؤلاء وأولئك .

١١٣٢ / ٥٢٦ (من) الخلافة الموحّدية

إلى ٦٦٨ / ١٢٦٩ م) ،

في المغرب اتخذ عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس الدّولة الموحّدية الفعلي لقب أمير المؤمنين حوالي سنة ١١٣٢ / ٥٢٦. وكان قصده من اتخاذ هذا اللقب التعبير عن عزمه على إحياء مؤسسة الخلافة المنهارة وتوحيد الأمّة حول عقيدة المهدي ابن تومرت (ت ١١٣٠ / ٥٢٤) وهذه العقيدة كما توضّحها مؤلفات ابن تومرت " العقيدة " و " المرشدة الأولى " و " المرشدة الثانية " خليط من مقالات مختلفة منها ما هي سنّية ومنها ما هي اعتزالية ومنها ما هي شيعيّة . ففي باب الإلهيات يرى ابن تومرت أن صفات الله لا يمكن أن توجد مفصولة عن الدّات وهو في هذا الرّأي يتبنّى رأي المعتزلة في التوحيد . ومن جهة أخرى يدعو ابن تومرت إلى الرّجوع إلى القرآن والسنة والإجماع أي إجماع الصحابة ولكنه يرفض التقليد أي التقيد بأيّ مذهب سنّي (مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل وغيرها من المذاهب) وأخيرا يرى وجوب التأويل (تأويل القرآن) ولكنه يقصر عمليّة التأويل على المهدي وقد اعتبر أنّه هو المهدي وأنّه معصوم من الخطأ وفي هذا الموقف يتّضح تأثيره بأقوال الشيعة في الإمامة . ولئن كان ابن تومرت مؤسس الدّولة الموحّدية الرّوحي فإنّ عبد المؤمن هو الذي قضى على الدّولة المرابطيّة والذي جمع تحت سلطته المغرب الأقصى والأوسط (الجزائر) وإفريقيّة فضلا عن الأندلس . ولكنّ هذا البناء الشامخ لم يدم طويلا لعدّة أسباب نذكر منها بالخصوص أنّ فكرة التوحيد التي دعا إليها ابن تومرت والتي تجسّمت سياسيا في مؤسسة الخلافة الموحّدية قد تلاشت إذ تحولت الخلافة ملكا فقد عيّن عبد المؤمن قبل وفاته (سنة ٥٨٨ هـ) ابنه خلفا له ومن جهة أخرى سلك الموحّدون في المغرب الأوسط وفي إفريقية وفي الأندلس سلوك الفاتحين فاحتكروا المناصب السامية وحاولوا فرض عقيدتهم في مناطق كانت شديدة التعلّق بالمذهب المالكي (الأندلس وإفريقية خاصّة) . أخيرا وبعد فترة استقرار امتدت من ٥٢٦ هـ إلى ٦١٠ عرفت الدّولة الموحّدية الانحرام ثمّ

انقسمت إلى ثلاث دول : الدولة الحفصية بافريقية والدولة الزيانية (أو دولة بني عبد الواد) بالمغرب الأوسط والدولة المرينية بالمغرب الأقصى وبذلك زالت الخلافة الموحدية .

. الخلافة الفاطمية (297 هـ / 909 م . 567 هـ / 1171 م) ،

قامت الخلافة الفاطمية سنة 297 هـ / 909 م بافريقية على يد المهدي عبيد الله وكانت عاصمتها القيروان ثم المهديّة وفي سنة 361 هـ 972 غادر المعز لدين الله الفاطمي افرقية إلى مصر وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة والخلافة الفاطمية وليدة الحركة الاسماعيلية⁽⁵⁰⁾ وهي لذلك تختلف عن الخلافة العباسية من عدة وجوه فالإمام عندهم (الخليفة) معصوم من الخطأ وهو مصدر العلم يأخذه عن سابقه وهو المرجع الأوّل في التأويل وهو أخيرا وليّ الله الذي يرجو الجميع شفاعته⁽⁵¹⁾ ولذلك عدّت الاسماعيلية قضية الإمامة دينية أصولية وعدّوا معرفة الإمام واجبة حتّى يتمكن الناس من القيام بالشرائع وأداء الأمانات الربّانية إلى أهلها وقالوا " من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية " وذهب الغلاة منهم إلى القول بأنّ الله حلّ في شخص الخليفة الحاكم (ت 411 / 1021) والخلافة في نظرهم وفي نظر الإمامية⁽⁵²⁾ أيضا تعقد بالنص⁽⁵³⁾ ولا يمكن أنّ تناط لاختيار الأمة ولا حتّى لاهل الحلّ والعقد وما يمكن استنتاجه ممّا تقدّم أنّ الحكم في الخلافة الفاطمية حكم تيوقراطي بأنّ معنى الكلمة .

وفي أيام الفاطميين كان الإمام يعيّن من سيخلفه في وثيقة لا يطّلع عليها إلّا بعد وفاته وتسمّى الوصيّة والعادة هي أن يرث الإمامة الابن عن أبيه

(50) نسبة إلى اسماعيل الإمام السابع ويطلق عليهم وعلى القرامطة اسم الباطنية .

(51) يعتبر الاسماعيليون الولاية ركنا من اركان الإيمان .

(52) فرقة شيعية تسمّى أيضا الاثنا عشرية نسبة إلى الإمام الثاني عشر محمّد بن الحسن العسكري الذي تعدّه هذه الفرقة المهدي المنتظر .

(53) المقصود هو النصّ القرآني والحديث مثل حديث غدير خمّ .

وحدث أن عيّن الخليفة الحاكم ابن عم له ولكنّ أخت الحاكم ستّ الملك اعتبرت هذا التعيين مخالفا للقاعدة وسعت كلّ جهدها حتّى يرتقي العرش ابن الحاكم فتمّ لها ما أرادت لكن ابتداء من القرن الخامس اختلّ نظام التوريث لأنّ الوزراء الذين قويّت شكوّتهم تدخلوا في تعيين من يخلف الإمام الراحل . ففي سنة 487 / 1094 مثلاً أجلس الوزير الأفضل على العرش المستعلي أحد أبناء الخليفة السابق في حين أنّ الوصيّة حسب بعض الروايات تنصّ على أخيه نزار فكان هذا الحدث سبب انقسام الاسماعيلية إلى فرقتين متعاديتين : المستعملة وعاصمتهم القاهرة والنزارية وعاصمتهم قلعة الموت بإيران (4) ولما قتل الخليفة الأمر سنة 525 هـ / 1130 م ولم يخلف ابنا ولم يترك وصيّة انتقلت الخلافة إلى فرع آخر من العائلة أمّا الظروف التي أحاطت بممارسة الحكم فهي لا تكاد تختلف عمّا كانت عليه في الخلافة العباسيّة فقد تقلّص شيئا فشيئا نفوذ الخليفة وأصبح تسيير شؤون الدولة في القرنين الخامس والسادس بيد الوزراء الذين صاروا يلقبون منذ سنة 530 هـ / 1135 بالوزير الملك وقد استطاع بعضهم أن يجعلوا من الوزارة إرثا لعقبهم وآخر وزير لآخر خليفة فاطمي هو صلاح الدين الأيوبي (5) الذي استند بالحكم في أيام العاضد دون أن يعزله في أوّل الأمر ثم عزله سنة 567 / 1171 وأعاد الخطبة بإسم الخليفة العباسي وبذلك وضع حداً للخلافة الفاطميّة .

ـ الخلافة العباسيّة بمصر :

بعد دخول المغول بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم انتقلت الخلافة من العراق إلى مصر فالملك (6) الذين شملت دولتهم مصر والشام استقبلوا بالقاهرة فردا من العائلة العباسيّة (عمّ المستعصم) ثمّ نصّبه الظاهر بيبرس

(54) ينسب المؤرخون الحشاشين إلى الفرقة النزارية .

(55) غزا جيش نور الدين زنكي بقيادة الأمير الكردي شركوه وابن أخيه صلاح الدين مصر ثلاث مرات وكانت الغزوة الأخيرة (سنة 564 / 1169) هي الغزوة الحاسمة فقلّد الخليفة الفاطمي الأمير شركوه الوزارة وبعد شهرين سلّم شركوه الوزارة إلى صلاح الدين ورجع إلى حلب فكان صلاح الدين آخر وزير لآخر خليفة فاطمي .

(56) الملك من الأتراك .

خليفة سنة 659 / 1261 ولما توفي هذا الخليفة الملقب بالمستعصم خلفه الحاكم سنة 661 / 1262 الذي منع من الإشتغال بالسياسة وعاش في عزلة بالقلعة فلم يكن من مبرّر لإحياء مؤسسة الخلافة سوى إضفاء الشرعية على حكم المماليك وجعل القاهرة بوصفها مقرّ الخليفة عاصمة العالم الاسلامي .

وتواصلت الخلافة في عقب الحاكم ولكن الخليفة كان يفوّض كلّ صلاحياته إلى السلطان الذي يختاره أمراء المماليك ومنذ انتصاب الخليفة الثالث سقط حقّ الخليفة في ضرب السكة ولم يعد اسمه يذكر في خطبة الجمعة ولا في الخطبة بمكة ولبس السلاطين البردة والقلنسوة وهما من ميزات الخليفة ولم يبق له إلا لقب " نائب الله في أرضه " .

ورغم هذا كان بعض الأمراء حريصين على أن يقلّدهم الخليفة إماراتهم حتّى يكتسبوا الشرعية ومنهم بنو مظفرّ بایران وسلاطين دلهي بالهند والأمراء العثمانيون بالأناضول (بتركيا) لكنّ أمراء آخرين رفضوا الاعتراف بالخلافة العباسية بالقاهرة ومنهم خاصة الإخّان (57) غزال خان الذي استولى على دمشق سنة 698 / 1299 والذي اتخذ لقب " سلطان الاسلام والمسلمين " .

وبصفة عامّة نلاحظ أنّه ابتداء من القرن السابع وبالتحديد منذ هجمة الماغول تلقّب عدد من الأمراء والملوك بلقب خليفة فلم يعد هذا اللقب خاصّاً بأمير المؤمنين العباسي بل أصبح لقباً عادياً لكل من استبدّ بالحكم ببلد ما من ذلك مثلاً أنّ سلطان بلاد ما وراء النهر (58) محمّد الشيباني أمر أن يرسم على سكته لقب " خليفة الرحمان " وذلك في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

ـ الخلافة في عهد السلاطين العثمانيين (59)

لئن نعت بعض السلاطين العثمانيين بالخليفة المختار وبظّل الله في أرضه فإنّ مثل هذه الألقاب لم تكن ألقاباً رسمية بل كان يطلقها عليهم المدّاحون في

(57) الخان لقب للسلاطين الماغول بالعراقين ، العراق العربي والعراق الفارسي .

(58) النهر هو نهر جيحون .

(59) من 1300 م إلى 1923 م .

المناسبات ولكن من جهة أخرى فإنّ العثمانيين لم يعترفوا قط بالخلافة العباسية بالقاهرة . ولما استولى السلطان سليم على الشام ثم على مصر (60) أسر الخليفة العباسي المتوكل ونفاه إلى اصطمبول ثم أطلق سراحه السلطان سليمان فرجع إلى القاهرة وبها توفي سنة 950 هـ / 1543 م فكان آخر الخلفاء العباسيين بالقاهرة وما يجب أن نلاحظه هو أنّ السلطان سليم لم يحول بصفة رسمية الخلافة من القاهرة إلى اصطمبول وأنّ الوثائق الرسمية والسكة في أيامه وآيام السلاطين الذين أتوا بعده لا ذكر فيها للقب " خليفة " أو " أمير المؤمنين " أو " إمام " وأنّ اللقب الوحيد الذي أضيف إلى سلطان (أو خاقان) بعد الاستيلاء على الشام ومصر هو " خادم الحرمين " (61) وهو لقب اختص به السلاطين المماليك دون الخلفاء العباسيين على أنّه ابتداء من القرن الثامن عشر اعتاد سفراء الباب العالي في الدّول الغربية أن ينعثوا مخدوميهم (السلاطين العثمانيين) بالخلفاء وأن يعرفوا بهم على أنّهم رؤساء العالم الاسلامي كلّ وفي المعاهدة المبرمة سنة 1774 م بين عبد الحميد الأوّل وامبراطورة روسيا كاترين وردت عبارة " إمام المؤمنين وخليفة الموحّدين " (62) وفي القرن التاسع عشر ، قرن الصراع بين الباب العالي والدّول الغربية ، تأكّد حرص السلاطين العثمانيين على أن يعتبروا المدافعين عن الإسلام فأضحى لقب الخليفة لقباً رسمياً ويظهر ذلك مثلاً في الدّستور الذي صدر في آيام عبد الحميد الثاني (1909 م) وبالضبط في ديسمبر 1876 والذي جاء فيه أنّ السلطان بصفته خليفة هو حامي الدّين الاسلامي ولئن بقي هذا الدستور حبراً على ورق مدّة طويلة فلم يعمل به إلا سنة 1908 فإنّ عبد الحميد الثاني بقي متعلّقاً بلقب خليفة يداعبه الأمل في توحيد العالم الاسلامي وقد أدكّى فيه هذا الأمل جمال الدّين الأفغاني الذي زار اصطمبول مرتين سنة 1869 وسنة 1892 ومات بها

(60) احتلّ العثمانيون الشام ومصر سنة 1517 وبذلك زالت دولة المماليك .

(61) حمل هذا اللّقب السلطان سليم (1520 م) .

(62) في هذه المعاهدة تمسك السلطان بسلطته الدّينية على المجموعات الإسلامية في المناطق التي خرجت عن الحكم العثماني وأصبحت جزءاً من الامبراطورية الروسية .

سنة 1897 وكان كما نعلم يرى أنّ وحدة العالم الاسلامي هي القادرة وحدها على الصمود أمام الدّول الغربيّة .

لـم يتحقّق التوحيد بل بالعكس أخذت الامبراطوريّة العثمانيّة تنهار ولكنّ الدّول الغربيّة التي استغلّت ضعف الباب العالي لتمزّق الامبراطورية وتستعمر بعض أجزائها اعترفت للسلطان العثماني بإمامة المسلمين فلمّا احتلّ الايطاليون ليبيا كان شيخ الإسلام باصطمبول هو الذي يعيّن قاضي القضاة بهذا البلد .

أما فيما يخصّ ممارسة الحكم فقد كان حكم العثمانيين حكماً مطلقاً على أنّهم سعوا إلى مزيد من تنظيم لشؤون الدولة فوضع السلطان سليمان (ت 1566 م) مجموعة من التراتيب تسمى " القانون " وتتعلّق بالشؤون المالية وبعدها مسائل أخرى منها تعيين السلطان وفي القرن التاسع عشر بدأ تعصير أجهزة الدولة ووضعت مجموعة من القوانين والتراتيب تسمى : " تنظيمات "

(3 6) وأدّت حركة التعصير إلى سنّ دستور 1876 الذي ينصّ على بعث نظام برلماني لكن هذا الدّستور كما قلنا سابقاً لم يطبّق إلا سنة 1908 وبعد قيام النظام البرلماني وتكوين حزب الوحدة والتقدم كانت مسألة الخلافة محلّ أخذ وردّ فمن جهة عمل هذا الحزب على الحدّ من سلطة الخليفة ولكنّه من جهة أخرى رأى في الخلافة وسيلة للإبقاء على النفوذ التركي في البلدان العربيّة وبعد الحرب العالميّة الأولى تغيّرت المعطيات ففي نوفمبر 1922 قرّر المجلس الوطني بأنقره عزل السلطان محمّد السادس عملاً بدستور جانفي 1921 الذي ينصّ على أنّ السيادة للشعب وعوّضه بالأمير عبد المجيد الذي فقد كلّ صلاحياته بما في ذلك تعيين القضاة وأئمّة الجوامع ولم يعد سوى " رمز للتضامن الاسلامي " وفي جانفي 1924 صرّح مصطفى كمال بأنّ فكرة خليفة واحد يمارس سلطة دينيّة على كلّ الشعوب الاسلاميّة فكرة أو جدتها الكتب لا الواقع وفي 3 مارس 1924 قرّر المجلس الوطني وضع حدّ لمؤسسة الخلافة وأصبحت خطبة الجمعة باسم " الحكومة الجمهوريّة والملة الاسلاميّة "

(63) صدر قانون " تنظيمات " سنة 1839 - لمزيد التفاصيل انظر دائرة المعارف الاسلاميّة - الطبعة القديمة - فصل تنظيمات - ج 4 ص 689 - 693 .

وحرّر جمع من العلماء وثيقة نشرت في تركيا وفي البلدان العربيّة تفيد أنّ مسألة الخلافة ليست مسألة دينيّة كلاميّة وأنه لا دخل للرّسول في إقامة هذه المؤسسة وأنّ الخلافة لا تكون ركنا من أركان الاسلام وقد أثار زوال الخلافة ضجة في المشرق العربي حيث ظهرت عدّة مشاريع لأحيائها (64) نظرا إلى أنّ هذه المؤسسة - حسب هذه المشاريع - أمر أساسي لحياة الأمّة ومصيرها وفي سنة 1926 التأم مؤتمران للنظر في مسألة الخلافة الأوّل بالقاهرة في شهر مارس والثاني بمكة في شهر جويلية ولكن بدون جدوى وقد شجعت الدّول العربيّة على إحياء الخلافة لكن شريطة أن يكون الخليفة من أتباعها فالانقليز كانوا يساندون حسين (شيخ الحجاز) (65) والفرنسيون باي تونس . وفي سنة 1931 التأم بالقدس مؤتمر ضمّ العلماء ورجال السياسة لنفس الغرض . وكانت النتيجة بروز فكرة الوحدة العربيّة وبذلك تحولت الحركة من حركة اسلاميّة إلى حركة قومية . انعقد سنة 1937 مؤتمر الوحدة العربيّة الذي مهّد لبعث الدّول العربيّة فتأسست سنة 1944 ومنذ ذلك التاريخ لم يعد موضوع الخلافة يشغل بال المسلمين باستثناء بعض السلفيين مثل حسن البنا (ت 1949) وعبد القادر عودة (ت 1954) المتنظر السياسي لجماعة الاخوان المسلمين وتقيّ الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي " وذلك في كتاباتهم المتعلقة بالحكم والدولة (66) والتي ينطلقون فيها من التصورات القديمة ولكنهم يصوغونها في ثوب حديث " (67) .

(64) من هذه المشاريع القديمة كتاب محمد رشيد رضا (ت 1935) : الخلافة أو الإمامة العظمى .

(65) الشيخ حسين المقصود هو والد فيصل ملك العراق السابق ووالد الملك عبد الله ملك الأردن المقتول وجدّ حسين ملك الأردن الآن .

(66) عن آراء كل هؤلاء انظر عبد المجيد الشرفي ، الاسلام والحداثة (الطبعة المذكورة) من ص 199 إلى ص 210 .

(67) عبد المجيد الشرفي ، نفس المرجع ص 209 .

تعقيب :

أثيرت أثناء العرض التاريخي نقاط تخص صلة الخلافة بالدين والفرق بين الخلافة والملك وعلاقة الحاكم بالمحكومين وطبيعة الحكم ولكنها لم تأخذ حظها من التحليل لذلك يحسن العودة إليها لتوضيحها .

1 . الخلافة والدين :

الخلافة (أو الإمامة الكبرى) كما رأينا قامت بحكم الواقع لا بمقتضى الشرع إذ ليس في النصّ القرآني ولا في الحديث ما يدلّ على أنّها جزء من الدّين والمتكلّمون والفقهاء السنيون الذين يعتبرون أنّ الخلافة وجبت شرعا يستندون إلى مبدأ الاجماع (إجماع الصحابة) فيقولون أنّ أصحاب الرسول عند وفاته بادروا إلى بيعته أبي بكر وتسليم النظر إليه في أمور المسلمين وكذلك فعلوا مع عمر وعثمان وعلي لكن الواقع التاريخي يبيّن أنّ الإجماع لم يحصل في تعيينهم ولا في متابعتهم ، أما القول بأنّ الخليفة هو خليفة الله في أرضه يحكم بتفويض منه ^(8 6) فهو من الترهات التي كان القصد من اختلاقها توطيد نفوذ هذه الدولة أو تلك بحمل الرعيّة على الطاعة غير المشروطة باسم الدّين فكانت النتيجة فتح الباب على مصراعيه للحكم المطلق والاعتباطي وإثارة الفتن والحروب .

وأخيرا فإن إقحام الدين في متاهات السياسة من شأنه أن ينزل به إلى مستوى الإيديولوجيا والشعارات فيستغل في الصراعات من أجل الفوز بالحكم .

2 . الخلافة والملك :

ميزّ القدامى الخلافة التي حصروها في أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ عن الملك الذي بدأ مع معاوية بن أبي سفيان فما هي مقاييسهم في هذا التمييز ؟

(68) يقول الماوردي إنّ الله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة وفوض إليه السياسة الأحكام السلطانية . المصدر المذكور ص 3 .

قد يتبادر إلى الذهن أن الفرق يكمن في أن الخليفة يتم تعيينه عن طريق الشورى في حين أن الملك يرث الحكم عن أبيه أو أحد أفراد عائلته . لكن يجب أن تنسى أن تعيين الخلفاء الراشدين لم يخضع دوماً لمبدأ الشورى وأن عمر عيته أبو بكر قبل وفاته واتخذ الفقهاء هذه السابقة حجة لتبرير شرعية تعيين ولّاء العهد . وقد يتبادر للذهن أيضاً أن ما يميز الخلافة عن الملك التزام الخلفاء الراشدين بأحكام الشريعة في ممارسة السلطة في حين أن من أتوا بعدهم حادوا عنها وهذا الرأي لا يخلو من تعسف بدليل أن المؤرخين والفقهاء السنيين يشهدون أن معاوية مثلاً (9 6) قد إلتزم هو كذلك بأحكام الشريعة فلم إذن لم يلحقوه بالخلفاء الراشدين ؟ إن الفرق في نظرنا يكمن في تصوّر القدامى للخلافة الراشدة (7 0) . فهذه كما يتمثلونها تمتاز بسمات لم تتوفر في أية دولة جاءت بعدها فهي عندهم ليست مجرد مؤسسة سياسية قامت بحقوق المسلمين حسب أحكام الشريعة بل هي ظاهرة فريدة من نوعها تجسّمت فيها قيم الاسلام ومثله الاخلاقي الأعلى وكانت غايتها ضمان سعادة الانسان في الدنيا والآخرة وعبرة خليفة الرسول لا تعني خلافته في الحكم بقدر ما تعني خلافته في نشر قيم الاسلام وترسيخها في النفوس أما الملك (7 1) فلا يمكن أن يضاهي الخلافة حتى وإن التزم الحاكم بأحكام الشريعة لأنّ الملك غايته غاية دنيويّة هي الحفاظ على السلطة ولأنّ الإلتزام بأحكام الشريعة في الملك ليس إلا وسيلة لبلوغ هذه الغاية وبعبارة وجيزة فإن الفرق الاساسي بين الخلافة والملك يمكن حسب هذه الرؤية في البعد الاخلاقي الذي تتحلّى به الخلافة دون الملك .

(69) يمكن ان نضيف خلفاء آخرين مثل الرشيد او المتوكل .

(70) لا يزال هذا التصور قائماً في الازمان إلى اليوم .

(71) يقسم ابن خلدون الملك إلى ملك طبيعي، وهو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة أي مصلحة الحاكم وشهوته ، والملك السياسي، وهو " حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيويّة ودفع المضار أي جلب المصالح للرعيّة ودفع المضار عنها، المقدّمة . بيروت 1967 . الطبعة الثالثة ، ص 358 .

وهذا التصور الذي يجعل من الخلافة النموذج الأمثل بعيد عن الواقع التاريخي فالخلافة ظاهرة بشرية لها ككل ظاهرة بشرية وجوه إيجابية وأخرى سلبية وفترة الخلافة كما رأينا لم تخل من النزاعات والتقاتل وما الحنين إلى الخلافة إلا تعبير عن تعلق بمثل أعلى لا يمكن أن يتجسم في الواقع وهو من هذه الناحية نفى للدولة ذاتها .

3 . علاقة الحاكم بالمحكومين :

الشورى : ينص القرآن في مسألة الحكم وتسيير شؤون الأمة على مبادئ عامة منها مبدأ الشورى لكن ما نلاحظ هو أن هذا المبدأ ضيق إجراؤه ثم عدل عنه تماما . لقد حصرت الخلافة في قريش بدعوى أن الرسول أوصى بأن تكون الرئاسة فيها فنتجت عن هذا الحصر ثورات الخوارج الذين كانوا يرون أن تكون الخلافة في كل البيوت لا في قريش وحدها كما نتجت عنه ثورات الأعاجم من المسلمين الذين شعروا بالخيف المتولد عن إقصائهم من الخلافة لا لشيء إلا لأنهم من غير العرب ومن جهة أخرى حصرت في مرحلة أولى عملية اختيار الخليفة في فئة قليلة⁽⁷²⁾ فاقصيت العامة ثم أصبحت الخلافة ورأئية وبذلك أقصيت الخاصة بدورها من عملية اختيار الخليفة وأصبحت البيعة أمرا شكليا .

(72) قام بتعيين الخلفاء الراشدين (باستثناء عمر الذي عينه أبو بكر قبل وفاته) عدد من الصحابة وقد رأى المشرعون فيما بعد أنه في حالة شغور منصب الخلافة يتعين على أهل الحل والعقد . دون عامة الرعية . التشاور فيما بينهم لاختيار خليفة .

وفي تسيير شؤون الدولة لم يفكر المشرعون في كيفية إجراء مبدأ الشورى : واكتفوا بدعوة الخليفة إلى استشارة علماء الدين وأهل الخبرة (73) فكان مبدأ الشورى أمرا نظريا أكثر منه حقيقة تاريخية .

ـ البيعة : البيعة كما قلنا عهد بين الخليفة والأمة يلتزم بمقتضاه الخليفة بالقيام بحقوق المسلمين وتلتزم الرعية بطاعته وموازرتة ما لم يتغير حالة " أي ما بقى وفيّا للعهد ولكنّ المشرعين لم يفكروا في كيفية إجراء هذا المبدأ كان يكون لمحكمة خاصة حقّ تنحيته عند تغير حالة ولذلك كان كلامهم عن عمل الخليفة الفاسق كلاما نظريا ولم تكن للأمة طريقة لممارسة حقّها في محاسبة الخليفة على أعماله وعزله إن اقتضى الأمر. فلم يبق لها للتعبير عن سخطها إلاّ الانتفاضات والخروج على الحاكم. والغريب أن علماء الدين السنيين يرون في الخروج على الحاكم ولو جارّ فعلا غير شرعي لأنّ الفتنة في نظرهم أشدّ ضررا من جور الجائر رغم مخالفة هذا الحكم للشرع ويعتبرون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصح العلماء كفيل بتغيير سلوك الحاكم ولو كان النصح فعلا كما يزعمون لما عرفت البلاد الاسلامية الظلم وفساد العمران .

4 ـ طبيعة الحكم :

إن كتب التاريخ وعلم الكلام والفقه السياسي (74) تذكر بكثير من التفاصيل واجبات الخليفة ولكنها قلما تتحدث عن طبيعة الحكم لأن المقياس في تقويم سياسة الحاكم هو التزامه بأحكام الشريعة أو عدم التزامه بها . صحيح أن الشريعة التي وجب عليه احترامها تحدّ مبدئيا من الحكم المطلق والاعتباطي فليس للخليفة مثلا أن يأمر بقتل المسلم إلا في الحالات التي ينص عليها الشرع لكن لما كان حفظ الأمن مما يلزمه من الأمور العامة فإنّ هذا الواجب فتح

(73) انظر مثلا الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد طبعة القاهرة د ت ص 18 .

(74) انظر الأحكام السلطانية ـ الطبعة المذكورة ـ ص 15 و 16 .

الباب للاعتباطية فعدت كل ثورة على الفساد والظلم فتنة وعد كل معارض لسياسة الخليفة خارجا عن الإسلام وكان مصيره غالبا القتل وبصفة عامة فإن الواقع التاريخي يبين أن الحكم كان حكما مطلقا وأن حقوق الأمة كانت بيد شخص قد يعدل وقد يجور فلا شيء يجبره على استشارة أي كان في القيام بمهامه ولا وجود لسلطة تشريعية أو قضائية تراقبه وتحاسبه على أعماله .

- بقيت نقطة أخيرة تتعلق بالفكر السياسي . إن المؤلفات القديمة التي تعالج مسألة الحكم كثيرة لا يسمح المجال باستعراضها ومن باب أولى وأحرى بتحليلها . لكن يمكن أن نُبدي في شأنها بعض الملاحظات فنقول إن أهمها وضعت في فترات متأزمة من التاريخ الإسلامي (5) وأنها مختلفة الاتجاهات حسب آفاق أصحابها الفكرية .

لقد عالج المتكلمون والفقهاء مسألة الخلافة في مبحث الإمامة وكان همّ السنيين إثبات شرعية الأمويين ثم العباسيين والدفاع عن مؤسسة الخلافة التي كانت تهددها وهذا ما فعله مثلا الباقلاني (ت 403 / 1013) في كتاب التمهيد وقد أحس بما تمثله حركات الشيعة من خطر عليها وهذا ما فعله كذلك الماوردي الذي كان يرمي من تأليف كتابه إلى مؤزارة مؤسسة الخلافة فأكد أن الخليفة مصدر الشرعية رغم ضعف مركزه .

(75) نذكر على سبيل المثال فترة انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين (رسالة الصحابة لابن المقفع) فترة المعتزلة (رسالة الإمامة للجاحظ) . الصراع ضد البوهيين (كتاب التمهيد للباقلاني والأحكام السلطانية للماوردي) وضد الباطنية (كتاب الإرشاد لأبي المعالي الجويني الذي توفي سنة 499 / 1105 وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد والمستظهر للغزالي المتوفي سنة 505 / 1111) وبعد سقوط الخلافة العباسية : السياسة الشرعية لابن تيمية (ت 728 / 1328) وفي هذا الكتاب يمر سريعا على مؤسسة الخلافة التي لا يرى أنها واجبة شرعا .

لكن هذه الكتب لا تبحث في فلسفة الحكم وماهيته والقوى الفاعلة فيه وآلياته وكيفية تطويره حسب مقتضيات البيئة والعصر فتخرج به من دائرة التغلب والتمرد المتعاقبين بل بقي أصحابها متشبثين بمثل أعلى تجسّمه في نظرهم خلافة الراشدين وهذا الموقف يفسّره اعتقاد بأن الزمان عامل انحلال لا عامل تطور ونضج وأنّ العصر الذهبي ولّى وانقضى وأن العالم في تدهور مستمرّ الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن القدامى الذين ألفوا في السياسة الفلاسفة. وما قالوه في هذا الموضوع جزء من نظرياتهم التي تحاول تفسير خلق العالم ونظامه والتي تهتمّ بوضع الإنسان في هذا العالم وبطبيعته ومصيره وكلامهم في السياسة يندرج في القسم الخاصّ بالإنسان وطبيعته وسلوكه فالفارابي أبى مثلاً ينطلق من نظرية الفيض الأفلوطينيّة ليثبت وجود الله (الكائن واجب الوجود) ووحدانيته وليفسر كيفية خلق العالم ونظامه ويصل به البحث النظري الى القول بوجود حقائق أزلية تدرك إما عن طريق القوة المتخيّلة الكاملة التي يمتاز بها الأنبياء أو التأمل العقلي الذي يمتاز به الفلاسفة ويتخلص بعد ذلك الى تفسير نشوء المجتمعات البشرية ⁽⁷⁶⁾ ثم يقسمها الى قسمين كبيرين : المجتمعات الفاضلة التي تعرف السعادة القصوى وهي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة | ... | وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً ⁽⁷⁷⁾ والمجتمعات الجاهلة التي لا تعرف السعادة والتي تعتقد أن غاية الحياة في سلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات والانقياد الى الشهوات والمدينة الفاضلة (المجتمع الفاضل) عندهم كالجسم لكل عضو وظيفته وفيها يكون الرئيس بمثابة القلب أي في أعلى مرتبة وهو نبى وفيلسوف في آن

(76) يرى الفارابي أن تكون المجتمعات ظاهرة طبيعية أساسها حاجة الإنسان الى غيره وقد اخذ هذه الفكرة عن افلاطون في الجمهورية .

(77) كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة - مجموعة الروائع الإنسانيّة - اليونسكو . 1986 . ص 93 .

واحد يجمع بين كل الخصال وفيه يتجسّم الكمال ووظيفته دفع أهل المدينة الفاضلة الى نيل السعادة القصوى .

وقد رأى بعضهم في المدينة الفاضلة مشروعاً سياسياً " يرمي الى إصلاح الموجود لكن ما نعرفه هو أن الرجل لم يكن مهتماً بالأمور العامة وأنه شأنه شأن كثير من الفلاسفة المسلمين القدامى لم يبحث في الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تنجر مؤسسة الخلافة . فالمدينة الفاضلة لم يقصد بها مجتمعا معينا ولا دولة معينة والرئيس لا يراد به الخليفة وبعبارة أخرى فهو لم ينطلق من تحليل الواقع ليستنبط مشروعاً سياسياً إصلاحياً وإنما عرض نظرية شاملة تجمع بين نظرية الفيض لأفلوطين وآراء أفلاطون الذي نادى في كتابه " الجمهورية " بقيام حكومة الفلاسفة ^(7 8) وبين نظرية الإمامة الشيعية ^(7 9) . وهذه النظرية ترمى إلى حث الإنسان على التجرد من المادة لنيل السعادة القصوى الذي لا يتم في نظره إلا بدفع من رئيس أدرك الحقائق الأزلية بعد اتحاده بالعقل الفعال ^(8 0) الذي هو مصدر هذه الحقائق .

وأخيراً لا يمكن أن نغفل عن ذكر ابن خلدون وهو الذي خطأ فعلاً بالفكر السياسي الإسلامي خطوات حاسمة فقد اهتم في مقدمته بنشأة الدولة وتصورها وانقراضها ولكن المجال لا يسمح بعرض نظريته التي انكبت على تحليلها كثير من الدارسين لذلك سنقتصر على بعض الملاحظات . لقد نزل ابن خلدون

(78) لقد نادى أفلاطون بقيام حكومة الفلاسفة اعتقاداً منه أن الفلاسفة قادرون دون غيرهم على إقامة سياسة العدل نظراً إلى سعة معارفهم وتحليهم بالفضيلة ولكنه في كتابه " القوانين " تخلى عن فكرة " المدينة الفاضلة " وحكومة الفلاسفة فأعرض عن المثل الأعلى (L'ideal) .

(79) إن الرئيس في المدينة الفاضلة هو بمثابة الإمام في الفكر الإسماعيلي فهو الهادي والعارف بالحقائق فهو الكامل .

(80) العقل الفعال أو العقل العاشر هو الذي يدبّر عالم ما دون فلك القمر (أي الأرض) وهو واهب الصور وبه توجد الحقائق الأزلية .

مشكلة الدولة في الواقع الاجتماعي فاعتبر الدولة ظاهرة طبيعية⁽⁸¹⁾ يمكن تفسيرها عن طريق العقل وأخرجها من حيز " المقدس " أو النظر التجريدي وربط مشكلة الحكم والدولة بعلم الاجتماع العام الذي هو راند من رواده فكان جوابه على السؤال المحوري " كيف تنشأ الدولة وكيف تتطور ثم كيف تنحل ؟ " مركزا على العوامل البشرية (التوق الى الانفراد بالمجد أي النفوذ والثروة ثم الدعة والسكون عند حصول المجد) والعوامل الاقتصادية (التحول من البداوة الى الحضرة وما ينتج عنه من تغيير في العيش والكسب) والعوامل الاجتماعية (تعقد تركيبة المجتمع وتضارب المصالح) .

(81) يرى ابن خلدون ان الدعوة الدينية غير كافية لقيام الدولة لأن الدولة تقوم في نظره على العصبية . المقدمة ، الطبعة المذكورة ص 279 وما بعدها .

أجهزة الحكم : الحجابة والوزارة والدواوين

الحجابة

بعد ما قلناه عن مؤسسة الخلافة ننتقل الآن إلى أجهزة الدولة ونبدأ بالحجابة وهي لقب مخصوص لمن يحجب الخليفة أو أمير أو السلطان عن العامة، على أن وظيفة الحاجب chambellan كما سنرى تغيرت حسب الجهات والأزمنة فلم تكن دوما وظيفة بروتوكلية مقصورة على الحجابة في معناها الأصلي .

ظهرت الحجابة في أيام معاوية بن أبي سفيان وهذا دليل على أن الترتيب (ceremonial) أصبح جزءا من رسوم الخلافة والحياة بالبلاط وكان الحاجب في الدولة الأموية فضلا عن مهمته الأولى يرتب مجالس الخليفة ويقدم له السفراء والزائرين وكان يحظى بمنزلة رفيعة نظرا إلى قربيه من الخليفة إلا أنها دون منزلة ممثلي الأرسقراطية العربية .

وفي العهد العباسي الأول بقيت الحجابة في مدلولها الأصلي وإن اشتد التنافس بين الحاجب والوزير الذي كان أرفع منزلة وانتهى التنافس أحيانا لفائدة

الحاجب ذلك أنّ الخليفة المنصور قلّد الحاجب الربيع بن يونس الوزارة بعد عزل صاحبها أبي أيوب .

وفي منتصف القرن الثالث عيّن الحجاب غالبا من الغلمان (المماليك الأتراك) وفي هذا دليل على وزن العنصر التركي بل إنّ أحد هؤلاء الغلمان الذي اتخذه الخليفة المتوكل حاجبا احتلّ المرتبة الأولى في الحكومة لما قرّر هذا الخليفة الاستغناء عن الوزير .

وفي أواخر القرن الثالث تفرّد الوزير بتدبير شؤون الدولة ^(2) . إلا أن دور الحاجب بوصفه قائد المصافيّة (اسم يطلق على بعض وحدات حامية القصر) بقي هامّا خاصّة أنّ الفترة كانت فترة اضطرابات ودسائس تكرّرت محاولة تنحية الخليفة عن العرش فكان الحاجب مشير الخليفة الأول ودرعه وهذا ما يفسّر مثلاً بقاء الحاجب نصر القشوري بخطته في أيّام المقتدر من سنة 296 / 908 إلى سنة 317 / 929 في حين تعاقب على الوزارة في نفس المدّة عدّة وزراء كلّف هذا الحاجب برلقاء القبض عليهم عند عزلهم .

ومنذ سنة 317 / 929 عهدت الحجابة إلى الأمراء (قوآد الجيش) فأستغلّوا هذه الخطة للاستبداد بالسلطة وكادوا يستبدّوا بها فعلا لو لا معارضة الأمراء الولاة الذين كانت بأيديهم محاصيل جباية الأقاليم والذين كان بإمكانهم قطع المدد المالي عن السلطنة المركزيّة وانتهى الصراع بين الأمراء الحجاب والأمراء الولاة بأن عيّن الخليفة الرّاضي (ت 329) الأمير الوالي ابن رانق على رأس الحكومة سنة 324 / 936 ولقبه بأمير الأمراء ^(3) وبذلك ضعف مركز الأمير الحاجب الذي أصبح منذ سنة 329 هـ يلقب بحاجب الحجاب وهو لقب شرفي قصد به التعويض عن النفوذ المفقود إذ اقتصرّت مهمّة حاجب الحجاب على مراقبة الخدم وتنظيم مجالس الخليفة وترتيب الحواشي ، أي تحديد مكان كل واحد من الأعيان والزائرين عند استقبالهم .

(82) سَنُعود إلى هذه النقطة في الصفحات الموالية في الفقرات الخاصّة بالوزارة .

(83) هذه أول مرة يستعمل فيها هذا اللقب في التاريخ الإسلامي .

وفي الدولة البويهية لم تمكن للحاجب منزلة تذكر . ومن جهة أخرى فإن لفظة . الحاجب ، استعملت في معنى القائد الأعلى ويدل على هذا الاستعمال ما أورده مسكويه في كتابه . تجارب الأمم ، من أن الجيش طلب من السلطان البويهي بختييار الذي حكم من سنة 356 / 967 إلى سنة 378 / 987 أن يعامل قواده كما كان يعاملهم والده معز الدولة وأن يحترم السنة في ترقيتهم من نقيب إلى قائد إلى حاجب (قائد أعلى) .

وفي دولة المماليك بمصر والشام كان حاجب الحجاب من أرباب السيف . وكانت وظيفته حجابة السلطان عن العامة والخاصة وترتيب استقبال السفراء والزوار القادمين عليه والستهر على تنظيم الاستعراضات العسكرية . ولكن الجديد في الأمر هو أن الحجاب الذين تحته كانوا يترأسون محاكم عسكرية تقضي بين المماليك حسب العرف الماكولي (اليساق) (84) لا حسب الشريعة وابتداء من القرن التاسع / الخامس عشر عهدت الحسبة (85) إلى الأمير الحـاجب (حاجب الحجاب) ثم تولى الحجاب القضاء بين أهل مصر والحال أنهم يكونوا من الفقهاء ويذكر المقرئ في الخطط (86) أن الحجاب كانوا يرتزقون من المتقاضين .

أما في الأندلس فقد كانت الحجابة خطة رفيعة جداً إذ كان الحاجب يحتل المرتبة الأولى في الحكومة ويقوم بدور الوساطة بين الخليفة والوزراء (87) ولئن

(84) كان المماليك من العنصر التركي الماغولي وقد تمسكوا باليساق حتى لا تطبق عليهم الاحكام الشرعية التي كانت تطبق على المصريين والشاميين وقد لاحظ ابن بطوطة في رحلته (القرن الثامن) أن أغلب المناطق التي يحكمها السلاطين من ولد جنكيس خان (بآسيا الوسطى وجنوب روسيا) كان يعمل فيها باليساق .

(85) سنعود إلى هذا المصطلح في الحديث عن النظام القضائي .

(86) العنوان الكامل : الواهظ والاعتبار في ذكر الخطط في الآثار - دار الكتاب اللبناني بدون تاريخ ج 2 ص 340 .

(87) في الدولة الاموية بالأندلس كان الوزير بمناسبة الكاتب المشرف على ديوان ولذلك كثر عدد الوزراء .

انقطعت الحجابة في أيام عبد الرحمان الثالث الذي حكم من سنة 300 هـ إلى سنة 350 هـ فقد ظهرت من جديد سنة 351 في خلافة الحكم الثاني واستغلها الحاجب محمد بن أبي عامر ليستبد بالسلطة في أيام هشام الثاني (403) وليقيم الدولة العامرية ويتخذ من الألقاب فضلا عن الحاجب لقب المنصور بالله ولقب الملك. وبعد انقراض الخلافة الأموية بالاندلس سنة 422 هـ أبقى ملوك الطوائف على خطة الحجابة ولكن الوظيفة عادت إلى أصلها .

وفي المغرب (شمال إفريقيا) اختلف وضع الحاجب ووظيفته حسب الدول ففي إفريقية كان للحاجب أيام الفاطميين شأن عظيم ولكن الحجابة لم تخرج عن مدلولها الأصلي إلا في حالات قليلة منها أن الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور (ت 341 هـ) عهد لأحد حجابيه قيادة الجيش لمحاربة أبي يزيد الخارجي المعروف بصاحب الحمار كما كلفه بإمامة المصلين بالقيروان (88) ولكن هذا التكليف كان لمدة محدودة .

وفي دولة بني زيري (89) ودولة الموحدين زالت خطة الحجابة ثم ظهرت من جديد في أيام الحفصيين. وأنحصرت الوظيفة في حجابة السلطان عن العامة لكن في عهد السلطان أبي بكر الثاني (ت 747 / 1346) قام الحاجب مقام الوزير وقد أستغل الحاجب ابن تقراجين خطته بعد أواخر أيام أبي بكر الثاني وفي أيام ابنه أبي حفص الثاني ليستبد بالحكم مدة تزيد على عشرين عاما. ثم لما استرجع الحفصيون نفوذهم في أيام السلطان أبي العباس (ت 794 / 1394) أبقوا على الخطة ولكنها حصرت من جديد في الحجابة بمعناها الأصلي .

(88) لمزيد من التفاصيل انظر فرحات الدشراوي في اطروحته بالفرنسية وعنوانها

Le Califat Fatimide Au Maghreb . تونس 1980 . ص 301 - 303 .

(89) يُقال دولة بني زيري أو الدولة الصنهاجية وهي الدولة التي حكمت إفريقية بعد انتقال الفاطميين إلى المشرق والتي دامت من 362 هـ إلى 543 هـ .

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ خطة الحجابة التي أحدثت في خلافة معاوية بن أبي سفيان لم تكن خطة قارّة وإنّ منزلة الحاجب ووظيفته رهينة الظروف فأحياناً كانت الحجابة مقصورة على سدّ باب الحاكم دون الجمهور وترتيب مجالس السلطان وأحياناً تعدّت هذه الوظيفة إلى الإشراف على الحامية وأحياناً أخرى كان الحاجب بمثابة الوزير الأول إمّا لمدةً معيّنة أو بصفة مستمرة كما هو الشأن في الدولة الأموية بالاندلس ومن جهة أخرى خرج معنى كلمة الحاجب عن المعهود فصار يقصد بها في الدولة البويهية القائد الأعلى أو القاضي في دولة المماليك . كلّ هذا يدعونا إلى اليقظة عند قراءة المصادر حتى لا نقع في سوء الفهم .

الوزارة

من النظم المستحدثة في الإسلام أيضا الوزارة ⁽⁹⁰⁾ التي ظهرت بعد قيام الدولة العباسية وبالضبط في أيام أبي العباس السفاح (ت 136 هـ) والراجح أن الاستحداث كان بتأثير من الفرس لكن كلمة وزير خلافا لما ذهب اليه بعض المستشرقين الذي يعيدون اللفظة إلى الفارسية القديمة (البهلوية) . فشير ، (الحاكم أو القاضي) كلمة عربية مشتقة من الوزر أي الثقل والعبء ويقصد بها المعين على تحمّل ائقال الحكم أي بعبارة حديثة رئيس الحكومة أو الوزير الأول وفي البداية لم تكن الوزارة مقننة القواعد ففي أيام أبي العباس كانت سلطة الوزير لا تشمل جميع الدواوين ⁽⁹¹⁾ إذ خرج عن رئاسته ديوان الخراج وأبو جعفر المنصور الخليفة الثاني (ت 158 هـ) كان تارة يعين وزيرا وطورا يستغنى عن الوزير ويسمى كاتبا وفي أيامه أيضا كانت سلطة الوزير محدودة لا تشمل كلّ الدواوين الإدارية والمالية ولم ترسخ الوزارة إلا منذ أيام المهدي (ت 169 هـ) إذ أصبح منصب الوزارة منصبا قارا وفي عهد الرشيد

(90) في عهد بني أمية كان الخليفة يستعين في تسيير شؤون الدولة بذوي الرأي وأهل الاختصاص ويسمى الواحد منهم مشيرا أو كاتباً ولم تكن لفظة وزير مستعملة .

(91) سنعود إلى مسألة الدواوين في الصفحات المالية ولكن يمكن من الآن أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام كبرى : الدواوين الإدارية - المالية - العسكرية .

(ت 193 هـ) كان الوزير يحيى بن برمك يشرف على كل الدواوين بما فيها ديوان المظالم وفي عصر المأمون سمّي الوزير الفضل بن سهل « ذا الرياستين » رناسة السيف ورناسة القلم فكان إذن يشرف على الدواوين الإدارية والعسكرية .

لكن يجب أن نضيف أنّ الوزارة في كلّ هذه الفترة كانت وزارة تنفذ أيّ أنّ الوزير كان يطبّق السياسة التي يرسمها الخليفة وأنّه متى لم يرض عنه الخليفة عزله وأنّه كان كذلك عرضة للقتل إن رأى الخليفة أنّه أصبح خطراً عليه وهذا ما حدث في أيّام الرشيد (نكبة البرامكة) وفي أيّام المأمون (نكبة الفضل بن سهل) وفي منتصف القرن الثالث لما تسلّط الغلمان (أي المماليك الأتراك) على الخلافة أفل نجم الوزراء ثمّ طلع من جديد في أواخر القرن الثالث ففي أيّام المقتدر الذي اعتلى العرش سنة 295 هـ ، تفرّد الوزير | بتدبير شؤون الدولة ، ^(2) فكان يباشر كلّ المهام حتى تلك التي هي من مسمولات الخليفة كتوقيع الرسائل ^(3) وتسمية أعوان الدولة (الـولاء والكتاب) وتعيين القضاة واستقبال السفراء ورناسة الشؤون العسكرية ^(4) وقيادة العمليات الحربيّة ^(5) والإشراف على ديوان المظالم ^(6)

(92) العبارة لـهلال الصابي في كتاب الوزراء .

(93) التوقيع بمعنى التعليق في الحاشية على الرسائل الواردة من الولاة وكبار أعوان الدولة بملاحظات على ضونها يكون الردّ على الرسائل .

(94) كلّف المأمون وزيره الفضل بن سهل بـرناسة الشؤون العسكرية فكان يحمل لقب أمير فضلا عن لقب وزير للتمييز بين الخطتين وكلّف نفس الخليفة الوزير أحمد بن خالد بهذه المهمة ذاتها ولكن هذا التكليف كان بصفة وقتيّة في حين أن إشراف الوزير على الجند أصبح أمراً قاراً منذ أيّام المقتدر إلى دخول البويهيّين بغداد .

(95) قام الوزير المقتدر أحمد بن عبد الله الخصيبي بتحسين بغداد وتنظيم الدّفاع منها لما هذّما قرامطة قراسة البحرين سنة 315 / 927 .

(96) قبل المقتدر فوّض الرشيد ليحيى بن برمك والمأمون للفضل بن سهل الإشراف على ديوان المظالم ولكن بصفة مؤقتة .

والإقطاع من الأراضي الدولية . وهذا النوع من الوزارة المسمى بوزارة التفويض لا يعني أن الوزير كان متغلباً على الخليفة وأنه كان مطلق الحرية في التصرف بل يعني أن الخليفة فوّض للوزير أمر تدبير كل شؤون الدولة فكان الوزير هو الذي يرسم سياسة البلاد ويشرف على تنفيذها ويكتفي الخليفة بمراقبته عن بعد ولئن كانت الوزارة في هذه الفترة محاطة بكثير من مظاهر الإجلال (97) نظراً إلى سلطة الوزير الواسعة فإن متقلدها كان عرضة للعزل ومصادرة أمواله وحتى للقتل فالمقتدر عيّن إثني عشر وزيراً قتل بعضهم وصُودرت أموال أغلبهم وكانت أكبر عقبة تعترض الوزير إدارة الشؤون المالية نظراً إلى كثرة المصاريف المتأتية أساساً من نفقات دار الخلافة (98) المتزايدة ومرتببات الجند (99) من جهة وإلى قلة المداخل من جهة أخرى إذ تقلصت رقعة الأقاليم الخاضعة لسلطة الخليفة فكان الوزير يعتمد إلى الاقتراض من الجهابذة اليهود أو من خزانة الخليفة الشخصية أو من كبار التجار بفانض مشط وحتى يسدّد الديوان كان يرفع معلوم الضرائب فأدت هذه السياسة المالية إلى فساد العمران (100) .

الوزارة في عهد البويهيين :

لما دخل البويهيون بغداد سنة هـ 334 / 945 ـ 946 م أصبح كاتب الأمير البويعي يقوم مقام الوزير فكان لأمير العراق معز الدولة (356 هـ) ولأخيه ركن الدولة (366 هـ) أمير الريّ والجبل وزير ولأخيه الثاني عماد

(97) من مظاهر الإجلال بناء دار خاصة للوزارة على دجلة .

(98) كان الخليفة يشترط على الشخص قبل تعيينه وزيراً أن يدفع له كل سنة من خزانة الدولة مقداراً من المال فإن لم يفعل عزله وأمر بمصادرة أمواله .

(99) كان الجند يثرون إذا لم تدفع جراياتهم وأحياناً يقتلون الوزير .

(100) انظر دراسة بالفرنسية - الوزارة العباسية Le Vizirat Abbasside دمشق ، 1961

الدولة (ت 338 هـ) أمير منطقة فارس وزير . ومهام الوزير البويهى محصورة في الإشراف على ديوان الرسائل ⁽¹⁰¹⁾ والدواوين المالية .
يُفيد مسكويه أنّ وزير ركن الدولة أبا الفضل بن العميد كان يقود الجيش ويضع خطط الحرب ⁽¹⁰²⁾ وفي أيام عضد الدولة (ت 372) الذي شملت إمارته كلّ ممالك البويهيين أسندت الوزارة إلى غير المسلمين ويرى الماوردى في الأحكام السلطانية أنّ الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ ، ⁽¹⁰³⁾ أي أنّ تعيين وزراء غير مسلمين جائز إذا كانت الوزارة وزارة تنفيذ وغير جائز إذا كانت الوزارة وزارة تفويض لأنّ الوزير في وزارة التفويض يتفرّد بوضع سياسة الدولة وتبدير شؤونها .

ملاحظة :

في القرن الرابع كادت الوزارة تكون وراثيّة فابن مقلّة أحد وزراء المقتردر خلفه ابنه وهو في الثامنة عشرة وكذلك تولى أبو الفضل بن العميد الوزارة بعد أبيه في أيام ركن الدولة وله من السنّ إحدى وعشرون سنة وتقلّد من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين سنة وتقلّد الوزارة أربعة من بني وهب في خمسين سنة وهذه الأمثلة تدلّ على نشوء عائلات أرستقراطية ارتبطت مصالحها الماديّة والمعنويّة بمصالح الخلفاء والأمراء وفيها تكوّنت أجيال من الوزراء والكتاب تلقوا تكويناً يجمع بين العلوم الدينيّة والأدبيّة وربّوا على خدمة الدولة .

(101) اشتهر في فنّ الترسلّ أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة .

(102) مسكويه في تجارب الامم - طبعة اميدروز (Amedroz) ص 184 .

(103) الأحكام السلطانية - الطبعة المذكورة - ص 27 .

الوزارة في عهد السلاجقة ،

في عهد السلاجقة الأول (447 / 1055 هـ - 485 / 1092 هـ) كانت الوزارة في أول الأمر حجر الزاوية في الإدارة المركزية فكان لوزير السلطان السلجوقي النظر في أجهزة هذه الإدارة : ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) والدواوين المالية وأشهر وزراء هذه الفترة نظــــام الملك (ت 485 هـ) وزير ألب أرسلان ومؤسس المدارس النظامية . لكن ابتداء من أيام السلطان بركياروق (ت 489 هـ) ضعف مركز الوزير . ففي حين كان الوزير في عهد السلاجقة الأول يتصل مباشرة بالسلطان أصبح بينه وبين السلطان حاجز يمثله وكيل الدار (دار السلطان) والأمير الحاجب ونتج عن هذا أن أصبح السلطان يتعامل مباشرة مع رؤساء الدواوين دون أن يستشير الوزير .

أخيرا نلاحظ أن الخليفة العباسي المقتفي عين ابن هبيرة وزيرا له سنة 544 / 1150 فاستبقاه الخليفة المستجد بالله (ت 566 / 1170) ويدخل هذا التعيين وهذا الإثبات في سياسة الخليفة العباسي الرامية إلى استرجاع سلطته ومشمولاته التي انتزعت منه منذ عهد الأمراء البويهيين .

الوزارة في الدولة الفاطمية ،

لم تكن الوزارة بإفريقية مؤسسة قارة في الدولة الأغلبية وفي أيام الفاطميين . زالت هذه المؤسسة فكان الخليفة يقوم بنفسه على شؤون الدولة مستعينا في المسائل المالية بأهل الاختصاص وفي أيام المعز امتد نفوذ الفاطميين إلى المغرب الأقصى فاجتمعت كل الظروف لبعث مؤسسة الوزارة نظرا إلى تشعب الجهاز الإداري ولكن هذا الخليفة اقتداء بوالده اسماعيل المنصور وجده القائم (ت 334 هـ) حرص على أن ينفرد بتسيير شؤون الدولة والآ يعين

وزيرا وإن كان لخدمه جودر أقرب المقرئين إليه من المسؤوليات والصلاحيات ما يجعله في مقام وزير تنفيذ (104) .

ثم اتخذ الفاطميون الوزراء بعد انتقالهم إلى مصر . وكان ابن كّس أول وزير فاطمي وكانت الوزارة في أول الأمر وزارة تنفيذ ثمّ قويت سلطة الوزير في أيام الخليفة المستنصر (ت 487 / 1094) حتى إنّه لقب بالملك (105) وبعد موت هذا الخليفة وانقسام الاسماعيلية إلى فرقتين النزارية والمستعلية ظهرت علامات الضعف على الخلافة واشتدت الأزمة بعد قتل الخليفة الأمر بالله سنة 524 / 1130 فتعددت الدساس والاضطرابات واستطاع بعض الوزراء ومنهم وزير الخليفة الحافظ أن يستبدوا بالحكم أو على الأقل أن يفرضوا أنفسهم إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية .

الوزارة في الأندلس وفي المغرب :

في الدولة الأموية بالأندلس كان الحاجب كما قلنا الشخصية الأولى في الحكومة في حين أنّ الوزير كان في مرتبة الكاتب وقد أفرد لكلّ ميدان وزير فجعل للشؤون المالية وزير والديوان الرّسائل وزير وللنظر في حوائج المتظلمين وزير ولأحوال أهل الثغور وزير (106) .

(104) لمزيد من التفاصيل انظر أطروحة فرحات الدّشراوي . المرجع المذكور ص 303 . 314 .

(105) من الوزراء الذين لقبوا بهذا اللقب الأملك الأفضّل وقد ولي الوزارة في خلافة المستنصر بالله الذي قتل سنة 515 / 1121 بإيعاز من الخليفة الأمر الذي كان يُريد التخلص من وزير قويت شوكته وأصبح خطرا عليه .

(106) ابن خلدون . المقدّمة . الطبعة المذكورة ص 424 .

وفي الدولة الموحدية كانت الحكومة تتركب من الوزير ومن الكتاب وأهمهم صاحب الأشغال المكلف بالشؤون المالية وكان الوزير يعين غالبا من بين الأشياخ الموحدين (107) .

وفي الدولة الحفصية كان لأبي زكرياء الأول (ت 647 هـ) ثلاثة وزراء (108) وزير الجند ووزير المال (صاحب الأشغال) ووزير الترسيل (أي المشرف على ديوان الرسائل) وكان وزير الجند الشخصية الأولى في الحكومة ويلقب برئيس الدولة أو كبير الدولة أو صاحب الدولة (109) وإن كان من الأشياخ الموحدين لقب بشيخ الدولة ولكن ابتداء من أيام السلطان أبي بكر الثاني (ت 749) أصبح الحاجب كما قلنا الشخصية الأولى في الحكومة عوضا عن وزير الجند .

تعقيب :

إن الوزارة حجر الزاوية في الإدارة المركزية أو هي كما يقول ابن خلدون في المقدمة « أم الخطط السلطانية » إذ الوزير في مفهوم الكلمة الأول هو بمثابة رئيس الحكومة اليوم ولكن هذه الخطّة المستحدثة لم تكن دوما ثابتة القواعد والوظيفة كما رأينا شأنها شأن الحجابة ففي وزارة التنفيذ كانت مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وتنفيذ السياسة التي وضعها أو على الأقلّ التي رسم خطوطها الكبرى وقد وافقت فترة وزارة التنفيذ العهد العباسي الأول لما كانت مؤسسة الخلافة قويّة ثم جاءت فترة وزارة التفويض وفيها انفرد الوزير

(107) السيد والشيخ مصطلحان في تاريخ الموحدين فالسيد هو من كان من سلالة عبد المؤمن الكومي المؤسس الفعلي للدولة الموحدية والشيخ هو من كان من العائلات الموحدية الكبرى مثل عائلة الحفصيين نسبة إلى جدّهم عمر بن حفص .

(108) لمزيد التفاصيل انظر أطروحة برنشفيك - المرجع المذكور ص 52 وما بعدها .

(109) رئيس الدولة في المفهوم الصحيح هو السلطان الحفصي ولكن لقب الوزير بهذه الألقاب تعظيما له .

بتدبير شؤون الدولة. وكان ظهور هذا النوع من الوزارة في فترة تأزم سياسي ومالي. على أن هذا الظهور لا يعني تغلب الوزير على الخليفة فقد عمد المقتدر إلى تفويض سلطته إلى الوزراء عن طواعية لكثرة المشاكل التي كانت تواجه الدولة (استبداد الولاة بأقاليمهم وقلة موارد الخزينة وشغب أمراء الجيش) وفضل تقديمهم على الركح حتى يكونوا هدف الرّامين عوضا عنه وهذه الملاحظة لا تنفي حالات استبداد الوزير بالسلطة مثلما فعله بعضهم في الدولة (110) الفاطمية (الملك الأفضل) لكن حتى في هذه الحالة فإنّ السلطة العليا بقيت بأيدي المدنيين إذ الوزير عادة ما يكون من الكتاب أمّا مع البويهيين والسلاجقة والإخانات (بالعراق وغربي بلاد الفرس) والمماليك بمصر والشام فقد تحوّل النفوذ من المدنيين إلى العسكريين الذين جمعوا بين السلطة السياسية وسلطة المال المتأتية من الإقطاع ولذلك مثلا كانت رتبة الوزير دون رتبة وكيل الدار والحاجب وهما من الأمراء (فؤاد الجيش) وكانت مهمة الوزير مقصورة على أخذ الجباية في دولة المماليك .

(110) المقدّمة - الطبعة المذكورة ص 419 .

الدواوين

اختلفَ في أصل كلمة ديوان فقيل هي مأخوذة من الفارسية « ديف » (dev) أي شيطان وسمى الكتاب (كتاب الدواوين) شياطين لخدقهم بالأمور ووقوفهم على الجلي والحفي وجمعهم ماشد وتفرق ثم أطلقت كلمة ديوان على مكان جلوسهم⁽¹¹¹⁾ ورأى البعض - وهذا الرأي هو الأرجح - أن لفظة ديوان مشتقة من دَوْن أي سجل فيكون معنى ديوان السجل أو الدفتر أطلقت على المكان الذي يحفظ فيه السجل .

لكن حتى وإن كانت اللفظة عربية الأصل فإن التنظيم الإداري في الإسلام تأثر بالنظم البيزنطية والفارسية بالعراق وإيران والدواوين البيزنطية والفارسية التي أبقى عليها المسلمون بعد الفتوحات فأقروا الدواوين الفارسية بالعراق وإيران والدواوين البيزنطية في مصر والشام .
وكلمة ديوان في التاريخ الإسلامي تعني تارة ما اصطلح على تسميته

(111) أبو يعلى الفراء - الاحكام السلطانية - طبعة البابي الحلبي 1356 هـ / 1938 م ص

اليوم وزارة وطورا مصلحة (Service) متفرعة عن الوزارة لها وظيفة خاصة وقد تعنى أيضا مصلحة جهوية (Service régional) مختصة إذ كانت للولايات دواوينها ويمكن أن تقسم الدواوين إلى أربعة أقسام كبرى :

- ديوان الرسائل والإنشاء

- ديوان البريد

- الدواوين المالية : بيت المال (Le Tresor) وديوان ضرب السكة (النقد) وديوان الجباية بأنواعها المختلفة ⁽¹¹²⁾ ديوان النفقات المدنية - ديوان الزمام

- ديوان الجند أو الجيش

1) الدواوين في عهد الخلفاء الراشدين :

إن أول ديوان أحدث في الإسلام هو ديوان الجند الذي أنشأه عمر بن الخطاب بالمدينة . وفي هذا الديوان (أو السجل) قيدت أسماء أهل المدينة وأسماء المشاركين في الفتوحات وكذلك أسماء الذين التحفوا مع عائلاتهم بالوحدات العسكرية المكلفة بحماية الأقاليم المفتوحة وتسمى هذه الوحدات الأجناد ⁽¹¹³⁾. وقد قام بعملية الإحصاء ثلاثة نسابين (العارفين بالأنساب) فكان التسجيل حسب القبائل . وبالإضافة إلى ديوان بالمدينة أنشئت دواوين جند بالبصرة والكوفة والفسطاط . وفيما يخص الشؤون المالية فقد دعم بيت المال وأقرت دواوين الخراج الساسانية بالعراق وإيران والبيزنطية بمصر والشام .

(112) يضم هذا الديوان الكبير دواوين فرعية ستعرض إليها .

(113) مثل جند الفسطاط بمصر والكوفة بالعراق .

(2) الدواوين في الدولة الأموية :

احتاجت الدولة في عهد الأمويين إلى دواوين جديدة تسير تطورها وتنظيم إدارتها والدواوين المستحدثة هي :

- ديوان الرسائل وهو يعنى بمراسلات الخليفة مع الولايات وكذلك مع الدول الأجنبية. والخليفة كان يقرأ الرسالة ويوقعها أي يحشيها بأوامر وتوجيهات ويتولى الكاتب (Secrétaire) تحرير الردّ معتبرا الأوامر والتوجيهات الصادرة عن الخليفة .

- ديوان البريد ويسمى المشرف عليه صاحب البريد وهذا الديوان مؤرث عن الساسانيين ومهمته تنظيم الاتصالات وضروب النقل وآلاته بين العاصمة ومدن المملكة الأخرى وكذلك تلقي الأخبار عن طريق أصحاب البريد في الولايات ونقلها إلى الخليفة. فالحمة إذن مزدوجة تجمع بين ما نسميه اليوم البريد (Poste) والإستعلامات أو المخابرات فعلى صاحب البريد أن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجرى في أمور الرعية وما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم كما عليه أن يعرف عدد المسالك (الطرق) وأميالها ومحطاتها حتى إذا ما احتاج الخليفة إلى معلومة ما قدّمها له فوراً وبكلّ دقة .

وفيما يخص الشؤون المالية فقد تعددت الدواوين فبالإضافة إلى بيت المال وديوان الخراج (ومعنى الخراج الضريبة على الأرض) أحدث :

- ديوان الصدقة وفيه تجمع موارد الزكاة والعشر⁽¹¹⁴⁾ لتوزع على من يستحقونها .

- ديوان النفقات وفيه تضبط النفقات على الجيش (التسليح والكسوة والأعطيات) وجرايات أعوان الحكومة أعوان والمصاريف في المصلحة العامة .

(114) العشر جزء من الزكاة يكون فقط على المحاصيل الزراعية في حين أن الزكاة تكون على الأموال بصفة عامة .

- ديوان المستغلات الذي يعنى بأموال الدولة غير المنقولة (biens immobiliers) كالأبنية والأسواق وفي العهد الأموي بقي ديوان الجند على حاله وأعيد إحصاء العسكر حسب القبائل مرّات. وعلى سبيل المثال تمّ إحصاء الجند بمصر ثلاث مرّات آخرها سنة 95 / 714 في أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك (ت 96 هـ). أخيرا نُضيف ديوانا يخرج عن التقسيم الكبير المذكور (الكتابة - الأموال - الجند) وهو ديوان الطراز ومهمته الإشراف على المصانع التي تعمل بها الأزياء الرّسمية والألوية .

تعريب الدواوين : بدأت سياسة التعريب في خلافة عبد الملك بن مروان (ت 86 / 705) فقد كانت من قبل اللغة المستعملة في دواوين - الخراج الفارسيّة بالعراق وإيران واليونانية بالشام واليونانية والقبطيّة بمصر كما أن التواريخ كانت محلّيّة وابتداء من خلافة عبد الملك بن مروان عوّضت التواريخ المحليّة بالتاريخ الإسلامي القمري وعرّبت الدواوين بصفة تدريجيّة . ففي أيام هذا الخليفة عرّبت دواوين العراق (سنة 78 / 697) والشام (81 / 700) ثم تمّ تعريب دواوين مصر (87 / 706) في خلافة الوليد بن عبد الملك (ت 96 / 714) ودواوين خراسان (124 / 742) في خلافة هشام بن عبد الملك (ت 125 / 742) وأصبحت العربيّة اللغة الرسميّة .

(3) الدواوين في الخلافة العبّاسيّة :

احتفظ العبّاسيّون بتنظيمات الدولة الأمويّة وأحكموا سيرها وأضافوا دواوين جديدة على أنّ أهمّ تغيير تمثّل في إنشاء الوزارة . ومن الدواوين التي أحدثوها :

- ديوان الضياع السلطانيّة في أيام أبي العبّاس السفاح .

- ديوان المصادرة في خلافة المنصور ومهمة هذا الديوان الإشراف على أموال الأعداء السياسيين بعد أخذها .

- ديوان الأحشام (أو الحشم) في خلافة المنصور كذلك. وهذا الديوان كان يعتني بخدم القصر وحرّاسه. وظهوره يشير إلى كثرة عددهم إذ لو لا ذلك لما وقع التفكير في إنشاء ديوان خاصّ بهم .

- ديوان الرقاع في نفس الخلافة وهو ديوان مكلف بتسليم شكاوى الرعية وتقديمها إلى الخليفة وموضوع الشكاوى، هذه هو مثلاً غلاء الأسعار أو المصادرة أو السجن ظلماً .

وفي خلافة المهدي أنشئ ديوان المظالم الذي يراسه الخليفة والذي ينظر في شكاوى الرعية من ظلم الولاة وأعوان الدولة بصفة عامة .

كما أنشئت دواوين الزمام وهي مصالح مهمتها مراقبة أعمال الدواوين وحساباتها فكان لكلّ ديوان مصلحة تقوم بهذه المراقبة. وفي سنة 168 / 784 أحدث هذا الخليفة زمام الأزمة الذي عهدت إليه مراقبة كلّ دواوين الزمام .

وفي خلافة المتوكل (ت 247 هـ) أحدث ديوان الموالي والغلمان (والغلمان المماليك الأتراك) وهذا الديوان يذكرنا بديوان الأحشام إلا أن التسمية الجديدة تشير إلى كثرة المماليك الأتراك في تلك الفترة .

ويحدثنا الجهشيارى في مؤلفه « الكتاب » عن ديوان الخاتم وعن ديوان السرّ والأوّل قديم أمّا الثاني فهو محدث وتكمن أهميته في أن القائم عليه وثيق الصلة بالخليفة .

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر م بلغت الدواوين أوجها في التنظيم والتنوّع . فقد أنشأ الخليفة الخليفة المعتضد (ت 289 هـ) ديوان الدار (أي دار الوزير) ويسمى أيضاً ديوان الدار الكبير الذي ضمّ كلّ دواوين الخراج الموزعة على عواصم الولايات. فكان الاتجاه إذن نحو مزيد من المركزية (Centralisation). ثمّ قسم الخليفة المستكفي (خلعه البويهيون عند دخولهم بغداد سنة 334 هـ) الديوان الكبير إلى ديوان المشرق وديوان

المغرب وديوان السّواد (أي العراق) . وبعد دخول البويهيين لم يبق إلا ديوان السّواد . وتفرّع بيت المال الذي كانت تضبط فيه الموارد نقدا وعينا وكذلك النفقات إلى فروع منها ديوان الكسوة (الأقمشة) وديوان الأهراء (مخازن الحبوب) وديوان خرائن السّلاح وديوان أراضي الدّولة .

وقسم ديوان الجند إلى قسمين الأوّل يعتني بالرواتب وغيرها من نفقات الجيش والثاني بتصنيفهم وسمّي الأوّل بمجلس التقرير والثاني بديوان المقابلة وقسم كذلك ديوان الرسائل إلى دواوين صغيرة تابعة له : ديوان الفصّ (أي فضّ الرسائل وتلخيصها على الرّقعة نفسها قبل تقديمها إلى الوزير) وديوان التوقيع وديوان الخاتم .

(4) الدواوين في أيام البويهيين (334 . 447 هـ)

بقي جهاز الإدارة المركزيّة في هيكله العام كما كان قبل دخول البويهيين بغداد وإن زالت بعض الدواوين الفرعيّة وتغيّرت أسماء الدواوين الكبرى . فمنذ عهد البويهيين أصبح ديوان الرسائل يسمّى ديوان الإنشاء وصاحبه بكاتب الإنشاء كما أصبح ديوان الجند يسمّى ديوان الجيشين الدّيلم (ومنهم البويهيين) والترك وسمّى ديوان بيت المال بديوان الخزائن أو ديوان الخزن وسمّى المشرف عليه الخازن وكان الخازن أحيانا يشرف كذلك على ديوان النقد والعيار الذي كان يطلق عليه أيضا اسم ديوان الضرب (ضرب السكّة) . وإلى جانب ديوان السّواد كان ديوان النفقات وديوان الأزمّة المشرف على دواوين الزمام المجعولة لمراقبة سير الدواوين وحساباتها .

(5) الدواوين في أيام السلاجقة :

- ديوان الإنشاء : وكان يشرف عليه الوزير أو كاتب يسمّى صاحب الدّيوان ثم سمي هذا الديوان الديوان العزيز .

ـ ديوان الجند :

ـ ديوان المخزن المعمور (أو الخزن) والمقصود بهذه التسمية بيت المال ويطلق على القائم عليه اسم صاحب المخزن أو الصدر ويشمل هذا الديوان عددا من الدواوين الفرعية على رأس كل واحد منها ناظر ومن هذه الفروع ديوان الجوالي أي الضريبة على الرأس وعلى الموارث في أهل الذمة وديوان التركات الحشرية أي التي لا وارث لها والتي تأخذها الدولة وديوان العقار الذي يهتم بأموال الدولة غير المنقولة (Immeubles) .

ـ ديوان الزمام والاستيفاء الذي يقوم مقام ديوان الخراج وعلى رأسه كاتب الزمام الملقب بالصدر .

(6) الدواوين بمصر

١ (في أيام الفاطميين ،

ـ ديوان الإنشاء ورئيسه يسمى صاحب الإنشاء أو كاتب الدست الشريف ويشمل هذا الديوان ثلاثة أقسام كبرى: ديوان النظر (أي الإشراف أو المراقبة) وعلى رأسه المتولي أو المشيد الملقب بالشيخ الأجل لرفعة منزلته إذ هو الذي كان يتصل بالإمام (الخليفة) ويقدم له الوثائق والرسائل ويقترح عليه الجواب .

ـ ديوان التوقيعات بالقلم الدقيق الذي يهتم بتسجيل أوامر الإمام في شأن الشكاوي المقدمة إليه في المجالس العمومية وأخيرا ديوان التوقيعات بالقلم الخليل الذي ينفذ أوامر الخليفة بعد أن يدعمها بمستندات قانونية .

والى جانب هذه الأقسام الكبرى كانت هناك مصالح صغرى : ديوان المكاتب إلى الملوك وآخر إلى أمراء الدولة وكبرائها، وآخر للمناشير وديوان الكتب اللطائف (القرارات السرية) وديوان الإنشاءات والتقليد (أي التسميات) .

- ديوان الجيش والرواتب ويتكوّن من قسمين ديوان الجيش وعلى رأسه المستوفي الذي كان يهتم بالتجنيد والتجهيز والمراقبة ، وديوان الرواتب (الجرايات) . ولما كان الفاطميّون يولون أهميّة إلى الأسطول البحري فقد أحدثوا ديوانا يعني ببناء السفن ويسمّى ديوان العماثر .

- ديوان الأموال وهو مقسّم إلى عدّة مصالح : ديوان النظر (المراقبة) .

- ديوان الرواتب (115) :

- ديوان المجلس وكان يهتم بالإقطاع (أي منح الإقطاعات من أراضي الدولة) (116) ديوان أسفل الأرض (117) (أي ديوان الخراج والضرائب الخاص بشمال واد النيل من أسبوط تقريبا) وديوان أعلى الأرض وديوان الثغور (الإسكندرية ودمياط وتنس وعيذاب على البحر الأحمر) أي المواني التجارية التي كان يؤخذ فيها على البضاعة المتوردة ضريبة تبلغ أحيانا الخمس وغيرها من الدواوين مثل ديوان الجوالي (الجزية وضريبة الإرث على الذميين) وديوان الأملاك الحشرية وديوان الأحباس الذي أسسه الخليفة المعز لدين الله سنة 363 / 974 وكانت مهمته إدارة الأملاك المحبسة على المساجد وغيرها من مؤسسات الخير .

ب) وفي أيام الأيوبيين كان رئيس ديوان الإنشاء الوزير نفسه (118) ومعينه الأول يسمّى متولّي كتابة الإنشاء وبقي ديوان الجيش فيما يبدو على

(115) كانت رواتب الجيش تصرف من الديوان الخاص بهم (ديوان الجيش والرواتب) .

(116) عن الإقطاع أنظر مقال كاين (Claude Cahen) في دائرة المعارف الجديدة .

(117) تشير المصادر إلى أن هذا الديوان قديم سابق للدولة الفاطمية فقد ذكر في بردى (papyrus) مؤرخ بسنة 143 هـ / 761 .

(118) أول وزير في الدولة الأيوبية هو القاضي الفاضل محي الدين (ت 596 / 1200) الذي سماه صلاح الدين في الوزارة وقد اشتهر في ميدان الأدب برساله السجعية والتسمة بالتصنع .

حاله كما كان في أيام الفاطميين أما بيت المال فقد قسّم إلى قسمين كبيرين الأول ديوان الأعمال ويضم ديوان أسفل الأرض والشعور والثاني ديوان الباب الذي يضم ديوان الزكاة والجوالي وديوان النظر المراقب للدواوين المالية الأخرى ولديوان الإقطاع .

ج (وفي أيام المماليك كانت المنزلة الأولى كما سبق أن ذكرنا لأصحاب أو أرباب السيوف وقد عرف التنظيم الإداري تغييرين هامّين الأوّل في أيام السّلطان محمّد بن قلاوون (ت 741 / 1341) الذي أزال الوزارة سنة 710 / 1310 ووزّع الوظائف التابعة لها على أربعة موظفين : ناظر المال ومشدّ الدواوين ⁽¹¹⁹⁾ والناظر الخاص (مراقب أموال السّلطان) وكاتب السرّ المشرف على ديوان الإنشاء ثمّ جاء السّلطان الظاهر سيف الدين برقوق (ت 801 / 1399) فأعاد الوزارة ولكنّ مهمّة الوزير اقتصرت على أخذ الجباية ومن جهة أخرى دعم هذا السّلطان الديوان الخاص فألحق به ديوان ثغر الإسكندرية وأنشأ ديوان المفرد وهو ديوان مهمّته مراقبة رواتب ممالك السّلطان ولباسهم .

- ديوان الإنشاء ويسمّى كذلك كتابة السرّ : إن القوائم على رأس هذا الديوان ويسمّى كاتب كاتب السرّ هو الشخصية الأولى من بين الأعوان المدنيّين فهو الذي يتلقّى الرسائل ويعرضها على السّلطان ويقدم له السّفراء ولكن منزلته دون منزلة الدّودار (وكيل دار السّلطان) الذي هو من أصحاب السيّوف .

- ديوان البريد : عرف هذا الديوان تطوّراً هامّاً في أيام المماليك فكان نقل الأخبار عن طريق المشاة المشهورين بسرعتهم وبواسطة ركبة الخيل وكذلك الحمام . ولئن كان على رأس هذا الديوان في الأوّل رئيس خاصّ (صاحب البريد) فقد ضمّ فيما بعد إلى ديوان الإنشاء وأصبح كاتب السرّ رئيس ديوان الإنشاء والبريد معاً .

(119) مشدّ الدواوين أي مراقبها (Surintendant) .

- ديوان الجيش ويسمى كذلك ديوان الجيوش المنصورة . وكان مقسما إلى ديوان الجيش المصري وديوان الجيش الشامي ولما كان قواد الجيش يرتزقون من الإقطاعات سمي هذا الديوان أيضا بديوان الإقطاع .

- ديوان الأموال : كان تحت سلطة رجل من أصحاب السيوف الأستادار الذي كان يشرف في الحين نفسه على ديوان المفرد، ومن الدواوين التابعة لهذا الديوان الكبير ديوان الموارث الحشرية وديوان الزكاة وديوان الأحباش وديوان الوجه القبلي (أعلى الأرض) وديوان الوجه البحري (أسفل الأرض) وكان على رأس كل منها ناظر .

(7) الأندلس والمغرب :

إن التنظيم الإداري في عهد الخلافة بالأندلس كان قائما على أربعة دواوين كبرى يشرف على كل واحد منها وزير :

- ديوان الرسائل (أو الترسيل) ومن خططه التوقيع والختم ويبدو أن ديوان البريد كان تابعا له .

- ديوان الخراج والجبائيات ويسمى كذلك ديوان الأشغال أو ديوان الأعمال (120) وفي صلب هذه الدائرة يقوم ديوان الزمام بمراقبة الحسابات .

- بيت المال وبه تجمع الأموال المأخوذة شرعا (الزكاة والعشر) وديوان الخزانة وبه الأموال المتأتية عن الضرائب غير الشرعية (المكوس) .

- ديوان الجيش (وسمي كذلك ديوان الجند أو ديوان العساكر) وكانت وظيفته إحصاء أفراد الجيش بصفة مستمرة وصرف أرزاقهم (رواتبهم) وكذلك الأعطيات (منح تعطى عند الدخول في الحرب) وتوزيع الإقطاعات على القواد .

(120) عبارة ديوان الأشغال أو الأعمال والمقصودة بها الشؤون المالية عبارة مستعملة في الأندلس والمغرب دون المشرق .

وقد تبنّى ملوك الطوائف هذا التنظيم الإداري فكان لكلّ مملكة أربعة دواوين كبرى .

أما في المغرب (شمال إفريقيا) فإنّ المعلومات التي جادت بها المصادر توحي بأنّ التنظيم في هذه النواحي لا يختلف في جوهره عن التنظيم بالأندلس فهو يقوم في الدولة الأغلبية على دواوين الرسائل والبريد والخراج وبيت المال والسكة والجيش .

وقد ورث الفاطميّون هذا التنظيم ⁽¹²¹⁾ إلّا أنّ ديوان الرسائل لم يبلغ الأهمية التي كانت له في الأندلس ، ثمّ إنّ أشهر الكتاب كانوا من المشرق ومنهم أبو جعفر محمّد بن أحمد الهارون البغدادي في خلافة المهدي . وفي أيام هذه الخليفة أحدث ديوان خاص . ديوان الكشف ، (مصلحة المخابرات) مهمته الإطلاع على أخبار الأعداء السياسيين بإفريقيّة وعلى موقف الرعيّة التي كانت في مجملها سنّة ثمّ ألحقت هذه المصلحة بديوان البريد سنة 300 / 913 .

وفي ما يخص الشؤون المالية أطلقت في عهد إسماعيل المنصور الخليفة الثالث (ت 314 هـ) عبارة الديوان أو ديوان النصوريّة ⁽¹²²⁾ على الإدارة المالية المركزية التي ضمت بيت المال وديوان الخراج والجباية والديوان الخاص ⁽¹²³⁾ (ديوان أموال الخليفة) وديوان العطاء والرزق (رواتب الجيش والأعطيات) .

(121) عن التنظيم الإداري أنظر اطروحة فرحات الدشراوي - الطبعة المذكورة - ص 314 وما بعدها .

(122) النصوريّة مدينة متصلة بالقيروان (صبرة النصوريّة) بناها إسماعيل المنصور سنة 337 هـ وجعل منها عاصمة الخلافة .

(123) مصدر هذه الأموال الضياع الأغلبية وبالخصوص ضريبة الخمس التي كان على الإسماعيليين حيثما كانوا دفعها إلى الإمام وهذه الضريبة تشمل الأموال القارة (العقار) وغير القارة .

وما يلاحظ في شأن الدواوين المالية أنّ الموظفين بها كانوا في أغلبهم من العبيد أو من الموالي المسيحيّين الذين أسلموا (124) .

وأما ديوان الجيش فكانت مهمّته ضبط قائمة العسـاكر حسب النسب (الانتماء القبلي) وتحديد مبلغ العطاء والرزق وكان الجيش النظامي يتكوّن أساسا من قبيلة كتامة البربريّة وهي القبيلة التي بدأت بها الدّعوة الإسماعليّة بافريقيّة والتي مكنت الدّاعي أبا عبد الله الصنعاني من الزحف على افريقيّة وفتح مدنها وإقامة الدّولة الفاطميّة سنة 296 / 909 .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميّين ورثوا عن الأغالبة قوّة بحريّة حرصوا على دعمها ولا أدلّ على ذلك من سيطرتهم على غربيّ البحر الأبيض المتوسّط في خلافة المعزّ من سنة 341 إلى سنة 362 هـ . لكنّ المصادر التي تذكر دور المهديّة في بناء السفن لا تمدّنا بمعلومات كافية عن الأسطول نفسه فلا نعرف هل أنّ الفاطميّين مثلاً أحدثوا ديوانا خاصّاً به كما فعلوا فيما بعد عند انتقالهم إلى مصر (ديوان العمانر) أم لا .

أما الدّولة الموحدية فقد تبنّت التنظيم الإداري الأندلسي وكان أغلب الموظفين في الدواوين وبخاصّ خصوص في ديوان الإنشاء من الأندلس وكذلك الأمر في الدّولة الحفصيّة (125) فأهمّ المصالح العموميّة فيها .

- ديوان الرسائل وعلى رأسه صاحب العلامة (126) والإنشاء .
- ديوان البريد بيت المال .

(124) كذلك كان الأمر في الأندلس .
(125) لمزيد من التفاصيل عن التنظيم الإداري في الدّولة الحفصيّة التي دامت من 626 إلى 981 هـ أنظر روبر برنشفك - المرجع المذكور ج 11 ص 94 61 .
(126) العلامة (parape) تنقسم إلى العلامة الكبرى التي يرسمها صاحب ديوان الإنشاء وهي المقصودة هنا والعلامة الصغرى وهي التي يرسمها كاتب من كتّاب الديوان .

- ديوان الأشغال (أي المالية) الذي يتفرغ إلى عدة مصالح منها ما تعنى بأخذ الخراج والأعشار والمكوس ومن المكوس ضريبة تؤخذ على البضائع عند باب مدينة القيروان ولذلك سميّ الديوان الخاصّ بها ديوان الباب والضريبة على البضائع المستوردة بحرا والتي أحدث لها ديوان في كلّ ميناء يسمّى رئيسه المشرف (chef de douane) وكلّ هذه الدواوين الجهوية تحت مراقبة ديوان مركزي سميّ ديوان البحر أو الديوان .

- ديوان الجيش الذي يعنى فقط بالجيش النظامي ودفع رواتبهم .

تعقيب :

لا شكّ أنكم لاحظتم أننا لم نتعرّض في هذه المسألة إلى الدواوين في كلّ البلاد الإسلامية لأن الغاية المنشودة ليست عرضا مفصّلا لجهاز الحكومة في كلّ دولة وإنّما التركيز على نشأة الدواوين في الإسلام وتطورها من خلال بعض الأمثلة وبيان وظائفها . والتعريف بالمصطلحات المستعملة في تسميتها .

الإمارة

لما قوي ساعد الإسلام في الجزيرة العربية بعث الرسول عددا من العمال (ج . عامل) ينوبونه في بعض المدن والقبائل الكبرى بالحجاز واليمن وتتلخص أهم وظائفهم في إمامة المسلمين في الصلاة وفي جمع الزكاة وكان له أيضا عمال في المدن غير الإسلامية من الجزيرة العربية اقتصرتهم مهمتهم على أخذ الجباية ومنهم عامل بعث به إلى حنين ليسلم من سكانها اليهود حصّة من المحصول الزراعي .

وفي أيام عمر اتسعت أراضي الدولة الإسلامية بعد الفتوح الكثيرة فكان لا بدّ من تقسيم إداري تنظيمي . لهذا جعل عمر بلاد فارس ثلاث ولايات (ولاية سجستان ومكران وكرمان - ولاية طبرستان - ولاية خراسان) وجعل العراق ولايتين ومصر ولاية واحدة وكذلك الشام وعين بكل ولاية أميرا (ويسمى كذلك عاملا) هو في أغلب الأحيان قائد من قواد الجيش الفاتح وكان الأمير (أو العامل) يجمع بين عدة وظائف : فهو يقيم الصلاة بالناس ويأخذ الزكاة من المسلمين ويقضي بينهم كما أنّه يأخذ الجباية من أهل الذمة ويقسم الغنيمة بين العرب الذي خرجوا من الجزيرة للجهاد فنزلوا بالبلدان المفتوحة وبعبارة وجيزة فقد كان الأمير في الحين نفسه إماما وقاضيا ومسؤولا عن الشؤون المالية والعسكرية .

وفي دولة بني أمية اتسعت سلطة الأمير (الوالي) فكان يؤمّ الناس في الصلاة وينظم الجيش ويقوده في الحرب ويعقد المعاهدات . ومن مشمولاته أيضا تعيين القاضي وصاحب الشرطة ⁽¹²⁷⁾ وصاحب البريد بولايته ونوابه في المدن الكبرى وقد يستشير الخليفة في تعيين هؤلاء النواب وقد لا يستشيرهم وكذلك الإشراف على الشؤون المالية فكان يأمر متى وكيف تؤخذ الجباية وقد يغير نظامها بإذني منه كانت الرواتب تدفع للموظفين والجند وتعطى العطايا للعرب النازلين بولايته ⁽¹²⁸⁾ وتبنى المساجد والمباني العمومية والطرق والحصون وتتعهّد . وبعبارة وجيزة فقد كان الحاكم في ولايته له حاجب وتحت سلطته كلّ الدواوين المحليّة (ديوان الرسائل - ديوان البريد - ديوان الخراج - ديوان الجند) وكلّ ما كان يطلب منه هو تقديم قائمة بالمداخيل والمصاريف وإرسال قسط من الأموال إلى خزينة الدولة .

على أن سلطته هذه حدّ منها لما وقع في عهد هشام بن عبد الله الفصل بين الشؤون الإدارية والعسكرية من جهة والشؤون المالية من جهة أخرى فخصّ الأمير بالأولى وعيّن شخص آخر ليهتم بالثانية ويسمى عامل الخراج ومن ذلك الحين أصبحت كلمة عامل تعني غالبا ⁽¹²⁹⁾ المشرف على الشؤون المالية في الولاية وكان تحت العامل المستقر بعاصمة الولاية أعوان منتشرون في بقية الولاية لأخذ الخراج ويسمى الواحد منهم عامل كورة (مجموعة من القرى) .

وفي العهد العباسي الأول تواصل العمل بالتنظيم الإداري الأموي مع تغييرات ناتجة عن نزعة العباسيين إلى مزيد من المركزية (centralisation) التي تجسّمت في إحداث خطة الوزير ومن هذه التغييرات أن صاحب البريد

(127) سنعود إلى هذه الخطة في الصفحات الموالية .

(128) أسسّ عمر بن الخطاب ديوان العطاء لفائدة العرب ودام هذا الديوان إلى أيام المعتصم

(ت 227 هـ) الخليفة العباسي الثامن الذي أمر بتعطيله .

(129) نقول غالبا لأنّ الكلمة بعد التاريخ استعملت أحيانا في معنى الوالي .

بالولاية وقضاتها خرجوا عن سلطة الأمير إذ كان الخليفة هو الذي يعينهم وقد كلف صاحب البريد بتقديم تقارير دورية إلى السلطة المركزية يخبرها فيها بأعمال الأمير واحوال الولاية ، ولما تأسس ديوان المظالم ببغداد عين الخليفة في كل ولاية شخصا ينظر في شكاوى الرعية من أعوان الدولة ومنهم طبعا الأمير وسمى القائم بهذه الوظيفة صاحب النظر في المظالم ، على أن الحدث الهام هو ظهور نوع من الإمارة جديد فقد عين الخلفاء العباسيون أمراء (أي ولاية) ومنحهم الحرية المطلقة في التصرف في ولاياتهم مقابل قسط من المال يدفعونه كل سنة وهؤلاء الأمراء هم الذين أقاموا دولا (dynasties) مستقلة فكانت علاقتهم بالخليفة محصورة في الحصول على عهد الولاية (قرار التسمية) وفي ذكر اسم الخليفة في الخطبة (خطبة الجمعة) وضرب السكة باسمه وهذه الدول هي الدولة الأغلبية بأفريقية⁽¹³⁰⁾ والدولة الطولونية⁽¹³¹⁾ ثم الإخشيدية⁽¹³²⁾ بمصر والدولة الطاهرية⁽¹³³⁾ بخراسان ثم الدولة السامانية⁽¹³⁴⁾ بخراسان وبلاد ما وراء النهر (نهر جيحون : Oxus) .

ولما أدرك الخلافة العباسية الوهن استغل قواد من الجيش (ويسمون كذلك أمراء) الفرصة ليستولوا على بعض المناطق بالقوة وطلبوا من الخليفة العهد

(130) كتب الخليفة الرشيد لابراهيم بن الأغلب العهد بالولاية سنة 184 هـ / 800 م وجعل الإمارة بعقبة يتوارثونها من بعده .

(131) كتب الخليفة المعتز لمحمد بن طولون العهد بالولاية سنة 254 هـ / 868 م ودامت الدولة الطولونية إلى سنة 293 هـ / 905 م .

(132) تم العهد بالولاية في خلافة الرازي سنة 324 هـ / 935 م ودامت الدولة الإخشيدية إلى سنة 359 هـ / 969 م .

(133) تم العهد بالولاية في خلافة المأمون سنة 205 هـ / 820 م ودامت الدولة الطاهرية إلى سنة 260 هـ / 873 م .

(134) قامت الدولة السامانية سنة 261 هـ / 874 م في خلافة المعتمد ودامت إلى سنة 390 هـ / 999 م .

بالولاية حتى يكتسبوا الشرعية ومن هؤلاء الأمراء بنو الصقار بسجستان (135)
(منطقة ببلاد الفرس تقع جنوب خراسان) والغزنويون (136) بافغانستان
وببلاد السند (باكستان اليوم) أما البويهيتون فإنهم لما دخلوا بغداد سلبوا
الخليفة مسمولاته وكذلك فعل السلاجقة ولكنهم جميعا كانوا يطلبون من
الخلفاء عهد الولاية ليضفوا على حكمهم الشرعية .

وقد عالج الماوردي في الأحكام السلطانية (137) مسألة الإمارة فقسمها
إلى إمارة خاصة وإمارة عامة فالإمارة الخاصة مقصورة على تدبير الجيش
وسياسة الرعية أو بعبارة أخرى تدبير الشؤون الإدارية والعسكرية فقط فليس
لأمير أن يتدخل في القضاء أو جباية الخراج ومثل هذا الأمير هو الأمير الذي
حدثت مسمولاته في العصر العباسي الأول أما الإمارة العامة فقسمها هي
الأخرى إلى قسمين .

إمارة إستكفاء

وإمارة استيلاء

وإمارة الإستكفاء هي الإمارة التي تعقد على اختيار أي أن الأمير
يتولاها برضى الخليفة واختياره والأمثلة على هذا النوع من الإمارة إمارة
الأغلبة بأفريقية والإمارتان الطولونية والأخشدية بمصر والإمارة الطاهرية ثم
السامانية بخراسان وأما إمارة الاستيلاء فتكون بعقد عن اضطرار أي أن الأمير
يأخذها كرها فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها وهذا النوع من الإمارة يمثل
إمارة بني الصقار وإمارة الغزنويين .

(135) قامت هذه الدولة سنة 256 هـ / 869 م في خلافة المعتمد ودامت إلى سنة 290 هـ / 902 م .

(136) قامت هذه الدولة سنة 351 هـ / 962 م ودامت إلى سنة 479 هـ / 1186 م .

(137) الطبعة المذكورة ، ص 30 . 34 .

وكلا النوعين يفضيان إلى دول مستقلة يكون الحكم فيها وراثيا يتوارثه عقب مؤسس الدولة ويستند فيها الأمير بالسياسة والتدبير، وما يجب أن نلاحظه هو أن الماوردي خضوعا للأمر الواقع عدَّ إمارة الاستيلاء شرعية واشترط في صحتها بالخصوص محافظة الأمير على الدين وحراسة القوانين الشرعية وتطبيقها .

أخيرا نشير إلى أن نظام الإمارة (الولاية) كان معمولاً به في الدول التي استقلت عن السلطة المركزية ببغداد أو التي قامت لتنازعها الشرعية مثل الدولة الفاطمية والدولة الأموية بالأندلس والدولة الموحدية وكذلك في الدول التي نشأت بعد زوال الخلافة العباسية وكان يمثل السلطة المركزية في الجهات يلقب بالوالي أو العامل (138) أو الأمير (139) أو القائد (140) .

(138) هما اللقبان الغالبان في الأندلس والمغرب .

(139) استعمل هذا اللقب خاصة في الدول ذات الطابع العسكري مثل الدول البويهية والسلجوقية والعثمانية .

(140) استعمل لقب القائد في الدولة الحفصية للتمييز بينه وبين الأمير فبإذا كان الوالي من العائلة الحفصية سمى أميرا وإذا كان من غير هذه العائلة سمى قائدا .

القضاء

جاء في سورة النساء " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (الآية 65) . فهذه الآية تفيد أنّ للرّسول فضلا عن مهمته الدينية والسياسية مهمة القضاء بين المسلمين في المدينة وأنّ أحكامه كانت مقترنة بالتنفيذ الفوري عملا بالآية المذكورة .

وفي القرآن آيات ترمي إلى تفويض العادات الجاهلية وإرساء مجتمع جديد منظم تشد أفراده لحمة الدين الإسلامي ومبادؤه الأخلاقية على أنّ الآيات التي تنصّ على أحكام وحدود لا تشمل كلّ الميادين فلم تذكر مثلا الحدود الواجب إقامتها على من يتعاطى الرّبا والميسر وعلى شارب الخمر وإنّما اكتفى بتحريم هذه الأعمال ذلك أنّ القرآن وإن اشتمل في بعض سورته على أحكام تتعلّق بالحرب والأسرة (الزواج - الطلاق - الإرث) وعلى حدود مثل حدّ قتل النفس والسرقة والزنا هو أولا وبالذات كتاب ديني لا مجلة قوانين هدفه غرس الإيمان وتهذيب النفس وبعث مجتمع فاضل .

الرسول كان يحكم بما جاء في القرآن من أحكام وحدود أو بما كان يراه وفيّا لمبدأ العدل . كان يحكم بالظاهر لأن الله وحده يتولى السرائر وقد صرح بأنه لم يؤت علم الغيب وفي عهده كانت مؤسسة القضاء بسيطة إذ إليه وحده

كان سكان المدينة يردّون كلّ نزاع⁽¹⁴¹⁾ كما أن التشريع كان في خطواته الأولى لان المجتمع الإسلامي في المدينة لم يعرف التعقيد الذي عرفتة الأمة بعد الفتوحات .

وبعد وفاة الرّسول تولّى الخلفاء الراشدون القضاء لأنّ الخليفة خليفة رسول الله والرّسول كان يحكم بين المتنازعين من المسلمين وانجر عن هذا أن بقي القضاء في الإسلام من مشمولات الخليفة يتولاه بنفسه أو يعيّن من ينوبه في هذه المهمّة فيقوم بها الوالي أو القاضي بتفويض منه ويبدو أنّ عمر آنس الحاجة إلى تعيين بعض القضاة في الولايات⁽¹⁴²⁾ والأمصار وإن صحت الروايات في هذا الشأن فإنها تفيد أنّ مؤسسة القضاء عرفت تطوّرًا من حيث التسيير أمّا فيما يخصّ التشريع فإنّ المصادر لا تمدّنا بمعلومات واضحة تمكّننا من معرفة الخطوات التي قد يكون خطاها لكن ما يلاحظ هو أنّه في فترة الخلافة الراشدة أصبح حدّ الزنا الرجم الذي لا ينصّ عليه القرآن⁽¹⁴³⁾ وإنه فيما يخص القانون المالي (الجباية) وقع الإبقاء على التراتيب التي كان يعمل بها في البلاد المفتوحة .

وفي أيّام بني أميّة كان الوالي يعين القضاة في ولايته ويعزلهم وكان أيضا ينظر في القضايا التي يريد البت فيها وقد اعتمد القضاة الذين لم يكونوا من

(141) تقول الروايات إنّ الرّسول قلّد عددا من الصحابة القضاء وتذهب بعض هذه الروايات إلى أنّ الذين اشتهروا بالقضاء والفتيا من الصحابة بلغوا على عهد الرّسول مائة وواحدا وثلاثين رجلا وإمرأة وهذه الروايات غير صحيحة .

(142) يقول إنّ عمر ولى شريحا الكندي قضاة الكوفة وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة وإنّه بعث إلى أبي موسى الأشعري رسالة في شروط القضاء لكن الاضطراب في أسماء القضاة ومحتوى الرسالة وأسلوبها عناصر تبعت كلها على الشك في هذه الروايات عن الرسالة انظر البيان والتبيين ج 2 ص 23 .

(143) حدّ الزنا في القرآن الجلد لا الرجم سورة النساء الآية 25 .

أهل الاختصاص⁽¹⁴⁴⁾ في أحكامهم المقصورة على المسلمين⁽¹⁴⁵⁾ القرآن والسنة والرأي وكذلك العرف فكانوا ينظرون في العرف السائد في البلدان التي عينوا فيها فما كان منه منافياً للشرعية رفضوه وما كان منه ملائماً قبلوه .

ومن جهة أخرى أحدثت في هذه الفترة خطة صاحب السوق أو عامل السوق التي تستوعبها في العهد العباسي الأول خطة المحتسب⁽¹⁴⁶⁾ وفي أيام هشام بن عبد الملك (ت 125 هـ) فصلت الشرطة عن القضاء واستقلت بالنظر في الجرائم وبذلك ضيق من مشمولات القاضي وفي هذه الفترة ظهرت المدارس الفقهيّة (المذاهب) ومنها مذهب أبي حنيفة (ت 150 هـ / 769 م) بالكوفة ومذهب الأوزاعي (ت 154 هـ / 774 م) ومذهب مالك بن أنس (ت 179 هـ / 795 م) والقصد من ذكر هذه المذاهب السنيّة الإشارة إلى أنّ التشريع من خلالها عرف تطوراً هاماً من حيث الأصول خاصّة فهؤلاء لم يكونوا قضاة ولكنّ مشاغلهم شملت كذلك الفقه أي واجبات الإنسان نحو خالقه (العبادات) وواجباته نحو غيره⁽¹⁴⁷⁾ (المعاملات) فكان لآرائهم أثره العميق في توجيه القضاء وعلى سبيل المثال نذكر أنّ أبا حنيفة جعل من الرأي والاستحسان ركيزة مذهبه في حين اتخذ مالك السنة والاجماع (إجماع العلماء) والمصلحة (المصلحة العامّة) عمدة مذهبه .

وفي أيام العباسيين خرج القاضي عن سلطة الوالي فكان يعينه الخليفة على أن هذا التغيير لم يضمن للقضاء استقلاله لأن السلطة المركزيّة كان بإمكانها عزل

(144) أي أنهم لم يكونوا تكويناً خاصاً يؤهلهم لمهمة القضاء .

(145) كما لغير المسلمين محاكمهم الخاصّة بهم : محكمة للمسيحيين ومحكمة لليهود

(146) سنتعرض إلى هذه الخطة في الصفحات الموالية .

(147) يشمل الفقه ميدانين مختلفين ميدان العبادات ويتعلق بأحكام الطّهارة والصلاة والزكاة والصوم والحجّ وميدان المعاملات ويشمل أحكام النكاح والإرث وأحكام الجرائم والجنايات وكذلك المعاملات الاقتصادية والتجاريّة والزراعيّة والسلوك الاجتماعيّ .

القاضي متى شاءت وفي خلافة الرشيد أحدثت خطة قاضي القضاة (148) وهي مظهر من مظاهر المركزية وأول من تولاهما القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ومؤلف كتاب الخراج ومن مشمولات قاضي القضاة أنه كان يعين بالأقاليم قضاة ينوبونه ولكن استحداث هذه الخطة لا يعني استقلال القضاء لأن قاضي القضاة تعينه السلطة المركزية (الخليفة أو الوزير أو السلطان) .

وفي أيام المهدي أحدث ديوان المظالم (149) وهو محكمة كان يشرف عليها الخليفة نفسه إلى عهد المهدي بالله (ت 256 هـ) الذي عين من ينوبه ويعرف ابن خلدون ولاية المظالم بقوله ، وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفية القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي وكأنه يمضي ما عجز القضاء أو غيرهم عن إمضائه (150) ومعنى هذا أن الناظر في المظالم (الخليفة أو الوزير أو الأمير من قواد الجيش) له من الهيبة وقوة اليد ما ليس للقاضي ولذلك يمكنه ردع العتاة من رجال الدولة وأعاونها .

من اختصاصات ديوان المظالم الذي أضحي جزءا من النظام القضائي في كل الدول الإسلامية شرقا وغربا :

- النظر في الشكاوى التي يرفعها أفراد الرعية على الولاة إذا ظلموا وعلى العمال إذا جاروا في جباية الأموال وإنزال العقوبة بهم .

- رد ما غصبته أيدي العتاة إلى أصحابه المستضعفين المظلومين .

- نقض أحكام القضاة المطعون فيها .

وإذا اعتبرنا المعطيات السابقة اتضح لنا

(148) يسمى قاضي القضاة في الأندلس وفي المغرب قاضي الجماعة .

(149) قيل إن ولاية المظالم بدأت مع الأمويين فكان عمر بن عبد العزيز يجلس للنظر في شكاوى الرعية ضد الولاة والعمال على أن إحداث ديوان خاص بالمظالم تم في خلافة المهدي .

(150) المقدمة ، الطبعة المذكورة ، ص 392 .

- أن القضاء في الإسلام كان دوما خاضعا للسلطة السياسية وهذا ما جعل عددا من العلماء (العلماء في الدين) يتورعون عن منصب القضاء لنلا يغضبوا الله برضى الخلفاء والسلطين.

- أن القضاء في الإسلام قضاء مزدوج ، قضاء ديني يتولاه قضاة متضلعون في الفقه يحكمون حسب الشريعة وحسب المذاهب التي ينتمون إليها (151) .

- قضاء مدني يتولاه أفراد من رجال الدولة (الوزير أو الوالي أو صاحب الشرطة) يحكمون " بموجب السياسة " (152) دون مراجعة الأحكام الشرعية والمقصود بالسياسة هنا السلطة التشريعية التي كانت للخليفة ولرجال الدولة في عدة ميادين (حفظ الأمن - الجباية - النظر في المظالم) منذ عهد الأمويين (153) . وقد أثار هذا النوع من القضاء أحيانا سخط الفقهاء الذين يعتبرون أن لا مشرع إلا الله وأن الأحكام الشرعية أحكام مقدسة لا قوانين بشرية وضعية لأنها مستنبطة من القرآن والسنة وهو رأي قابل للنقاش لأننا إذا استثنينا الأحكام والحدود التي نص عليها القرآن فإن بقية الأحكام هي من وضع الفقهاء أي من وضع بشر قد اختلفوا في كثير من المسائل بحكم الاجتهاد أو بحكم الانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك ومن جهة أخرى فإن هذه الأحكام سنت في زمان غير زماننا ولهذا يرى عدد من المفكرين أن تشريعات

(151) في العهد العباسي الأول تأسست بقية المذاهب السنية : مذهب ابن حنبل (ت 241 هـ / 855 م) والمذهب الشافعي (ت 205 هـ / 820 هـ) وأصبح كل قاض يحكم حسب أحد المذاهب الأربعة الذي ينتمي إليه .

(152) العبارة لابن خلدون ، المقدمة ، الطبعة المذكورة 8 ، ص ، 393 .

(153) إن هذه السلطة هي في الأصل للخليفة وقد أقرها المشرعون واشتروا الا تكون منافية للأحكام الشرعية (السياسية) ولكن في الحقيقة كان هذا تبريرا نظريا .

الفقهاء القدامى غير ملائمة لظروفنا اليوم ويدعون إلى سنّ قوانين تناسب الظروف الاجتماعية الجديدة (154) .

بقيت ملاحظة أخيرة تتعلق بوظيفة تابعة للقضاء : العدالة . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم في سجلات وبذلك تحفظ حقوق الناس وأموالهم وديونهم وسائر معاملاتهم ويشترط في العدل البراءة من الجرح والتضلع في فقه المعاملات حتى يحكم كتابة العقود من جهة عبارتها وانتظام فصولها وعلى القاضي أن يتصفح أحوال العدول ويراقب سيرهم ويقول ابن خلدون مبينا فائدة هذه الوظيفة وإذا تعين هؤلاء | يعنى العدول | لهذه الوظيفة عمّت الفائدة | | بسبب اتّساع الأمصار والأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبيانات المؤثوقة فيعولون غالبا في الوثوق بها | البيانات | على هذا الصنف (155) .

(154) لمزيد من التفاصيل انظر الإسماعيل والحدادة لعبد المجيد الشرفي - الفصل الخامس ص 148 . 181 .

(155) المقدمة - الطبعة المذكورة ، ص 397 . 398 .

الحسبة

الحسبة اصطلاحاً ⁽¹⁵⁶⁾ وظيفه دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ⁽¹⁵⁷⁾ ووجه من وجوه القضاء ويسمى القوائم بها المحتسب وتتمثل وظيفته إجمالاً في السهر على الأخلاق ومراقبة السوق في المدن فقط .

وإذا رجعنا إلى المصادر ⁽¹⁵⁸⁾ لاحظنا ان كلمة محتسب ظهرت في أواخر القرن الثاني الهجري وأن العبارة المستعملة قبل هذا التاريخ هي صاحب السوق أو عامل السوق والراجح أن هذه الخطة مورثة عن البيزنطيين. وفي أيام المأمون عوضت كلمة محتسب عبارة صاحب (أو عامل) السوق ويندرج

(156) لا نعرف لحد الآن سبب اختيار هذه الكلمة التي تعنى في الأصل العَدّ للوظيفة المذكورة .

(157) يعدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات كلّ مسلم .

(158) عن هذه المصادر انظر دائرة المعارف الإسلامية - الطبعة الجديدة - مادة Hisba ص 503 . 504 .

هذا التعويض في سياسة العباسيين الرامية الى أسلمة المؤسسات وذلك خاصة في فترة المعتزلة فأصبحت الوظيفة وظيفه دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو أصل من أصول الاعتزال الخمسة (159) .

ولما كان التغيير حدث في المشرق بعد انفصال المغرب عن المشرق سياسيا ظلت عبارة صاحب (أو عامل) السوق العبارة المستعملة في شمال افريقيا والأندلس لكن إذا ما قارنا بين وظيفة صاحب السوق ووظيفة المحتسب لاحظنا انهما من حيث المحتوى لا يختلفان كبير الاختلاف .

فما هو هذا المحتوى ؟

لقد ادخلت مراقبة السوق في إطار أوسع : السهر على استقامة السلوك وضمان المصلحة العامة فبالإضافة إلى مراقبة السوق تضمنت مشمولات المحتسب :

- حمل الناس على القيام بالواجبات الدينية (صلاة الجمعة) والاعتناء بالمساجد .

- المحافظة على الأخلاق في الطرقات والحمامات .

- حمل الناس على المصالح العامة ، فالمحتسب يزيل المباني التي تعوق نظام المرور ويحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ويسهر على نظافة الشوارع وعلى تزويد السكان بالماء ونظام توزيعه كما أنه يمنع الحمّالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل .

أما مراقبة السوق فتتمثل في الحرص على سلامة المعاملات من الربا وفي النظر في الغش والتدليس وفي المكايل والموازين وكذلك في الأسعار لكن يجب التنبيه إلى أن المحتسب لا يحدد الأسعار وإنما يراقبها فإذا ما عمد تاجر إلى الرّفع

(159) هذه الأصول هي : التوحيد . العدل (عدل الله) . الوعد والوعيد . المنزلة بين المنزلتين . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

من ثمن بضاعته متجاوزا السّعر المعمول به نهره أو عاقبه وفي فترات القحط
يعاوم المحتسب الاحتكار ومن مشمولاته أيضا النظر في النقود حتّى يحفظها
من الغشّ أو النقص .

وقد تجاوزت صلاحياته الحرف التابعة في نظرنا اليوم للسّوق لتشمل
حرفا أخرى فكان يراقب باعة العقاقير ويضرب على أيدي المعلمين في المكاتب
إن هم بالغوا في ضربهم الصبيان المتعلمين .

والعقوبات التي يمكن للمحتسب أن يسلطها على مرتكب المنكرات التأديب
والتعزير ⁽¹⁶⁰⁾ والتشهير كأن يُطاف بالذنب على حمار وفي الميدان الاقتصادي
حجز البضاعة المغشوشة وفي حالات قليلة منع من ارتكب جريمة أكثر من
مرة من تعاطي المهنة أو نفيه .

والمحتسب تعيينه الدولة إمّا مباشرة وإمّا عن طريق الوالي أو القاضي
بتفويض منها ⁽¹⁶¹⁾. ويُسْتَرَطُّ في المحتسب العدالة (honorabilité) ⁽¹⁶²⁾
أي الأخلاق البعيدة عن كلّ طعن وكذلك المعرفة بالشريعة ولذلك كان ينتدب
غالبا ⁽¹⁶³⁾ من بين الفقهاء إلّا أنّه في دولة المماليك عهدت الوظيفة في كثير
من الأحيان إلى أصحاب السيّف إمّا حرصا على النجاعة لما لهم من قوّة يد
وإمّا لأنّ الحسبة مثل غيرها من الوظائف كانت تشتري ويسترجع متوليها ما
دفع من المال يشرى عن طريق المكوس السلطة على التجار .

(160) التعزير تأديب على ذنوب لم تشرّع فيها الحدود وأنواع الزجر في هذه الحالة خاضعة
لتقدير القاضي وغير مضبوطة في الشرع - أمّا الحدود فهي ما وجب في ترك مفروض (ترك
الصلاة - منع الزكاة - ترك الصيام - عدم أداء الحجّ - الرّدة) ومما وجب بارتكاب المخطورات
(حدود الخمر والسّرقة والزنا والقذف أي رمي المحصّات بالزنا والمহারبة وأخيرا قود جنایات
الأنفس) .

(161) تفوّض السّلطة المركزيّة للدولة وظيفة الحسبة لا ليقوموا بها بل ليجتنبوا من يرونها
صالحا لها .

(162) يجب التفريق بين العدالة بمعنى وظيفة العدول التي سبق ذكرها والعدالة بمعنى البراءة
من الجرح في السّلوک والأخلاق .

(163) انتدب أحيانا المحتسب من بين التجار نظرا إلى معرفتهم بشؤون السوق .

ومن جهة أخرى كان المحتسب في القيام بمهامه يحتاج إلى معينين فكان يعين لكل حرفة أمينا أو عريفا كما كان تحت سلطته أعوان منتشرون في المدينة يطلعونه على ما يحدث من المنكرات .

تلك هي مؤسسة الحسبة وتلك هي مشمولات المحتسب التي كانت كما قلنا سالفا لا تمارس الا داخل المدينة وقد دامت هذه المؤسسة في أغلب أجراء العالم الإسلامي إلى عصرنا الحاضر فعلى سبيل المثال بقي نظام الحسبة بالمغرب الأقصى إلى أوائل القرن العشرين .

بقيت ملاحظة أخيرة تخص علاقة الحسبة بالقضاء .

كانت الحسبة في أول الأمر تابعة للقضاء ففي الدولة الفاطمية مثلا وكذلك في الدولة الأموية بالأندلس كانت الحسبة داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها من يختاره ثم انفصلت عن ولاية القاضي وأصبحت مؤسسة قائمة بذاتها فالمحتسب تعينه السلطة السياسية مباشرة ومحتسب العاصمة يراقب المحتسبين في بقية مدن البلاد .

ومن جهة أخرى لنن كانت الحسبة توافق القضاء في السهر على الحقوق فإن المحتسب لا ينظر إلا في الجرائم الثابتة وظواهر المنكرات فليس له أن يقوم بتحقيق ثم إنه في ممارسة صلاحياته لا يترقب شكوى مشتك في حين أن القاضي لا ينظر في أمر إلا إذا كان موضوع شكوى ومن واجبه التحقيق كان يسمع بيّنة على إثبات حق ويحلف يمينا على نفي حق .

الشرطة

كانت الغاية من وضع مؤسسة الشرطة في البداية مساعدة القاضى في إثبات التّهم ومساعدة الحكومة على تنفيذ الأحكام ، وفي الدولة العباسية عهد إلى صاحب الشرطة في نطاق رعاية المصالح العامة وضمان الأمن النظر في الجرائم وإقامة الحدود الشرعية والسياسية ⁽¹⁶⁴⁾ وبذلك أصبح بدوره " قاضيا " . وقد فصل الماوردي القول ⁽¹⁶⁵⁾ فيما يمكن أن يقوم ثبوت التهمة ويجوز له ان يضرب المتهم ليحمله على الإقرار كما يجوز له فيمن تكررّت منه الجرائم ولم ينزجر عنها بالحدود أن يستديم حسبه حتى يموت وينهي الماوردي كلامه في هذا المضمار بالملاحظة التالية ، فهذه أوجه يقع بها الفرق في الجرائم بين نظر الأمراء ⁽¹⁶⁶⁾ والقضاء في حال الاستبراء وقبل ثبوت الحد لاختصاص

(164) العبارة لابن خلدون (المقدمة - الطبعة المذكورة ، ص 446) وهي هامة لأنها تدل على أن الأحكام التي يصدرها صاحب الشرطة منها ما هي مستمدة من الشريعة ومنها ما كانت بموجب السياسة في معنى الكلمة الذي شرحناه في باب القضاء .

(165) الأحكام السلطانية - الطبعة - الباب التاسع عشر ، ص 219 - 221 .

(166) تشمل كلمة أمراء أصحاب الشرطة .

الأمير بالسياسة واختصاص القضاة بالأحكام (167) أي الأحكام الشرعية . ويستنتج من كلامه عن الفرق بين نظر الأمراء والقضاة في الجرائم أن صاحب الشرطة له من النفوذ ما ليس للقاضي ، ودعما لهذه الملاحظة الأخيرة نُضيف أن وظيفة صاحب الشرطة (168) كانت تسند غالبا للأكابر من رجال الدولة . وفي دولة الأمويين بالاندلس انقسمت الشرطة إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل صاحب الكبرى للحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم إذا ما ظلموا وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم وجعل صاحب الصغرى للعامة .

وفي موضوع الشرطة يجب ألا نغفل عن مؤسسة أخرى وهي مؤسسة الأحداث ، فمن معاني الكلمة الحوادث والشبان ولكنها تطلق أيضا على نوع من المليشيا كان لها دور خطير في تاريخ مدن الشام وشمال العراق (الجزيرة) من القرن الرابع إلى القرن السادس هجري . وقد اشتهر أمرهم خاصة بدمشق وحلب ، وتتمثل مهمتهم في الحفاظ على الأمن بالمدينة - وهم في هذا يقومون بدور الشرطة - وعند الحاجة في إعانة الجيش على الدفاع عنها ، وكان لهم مقابل هذه الخدمات رواتب تدفع لهم من محصول بعض الضرائب التي تفرضها المدينة على السكان أو على الأسواق والفرق بينهم وبين الشرطة كونهم جميعا من أهل المدينة وأنهم ليسوا من محترفي الشرطة وهذا النوع من الانتداب جعل مهمتهم تفوق مهمة الشرطة وتتميز عنها فهم بصفقتهم من أهل المدينة يكونون العنصر الديناميكي في معارضة الأمير المستبد بالسلطة في مدينتهم والذي هو غريب عنها فكانوا يشاغبونه وأحيانا إذا ما وهن يرغمونه على اقتسام السلطة بينه وبينهم .

(167) الأحكام السلطانية - نفس الطبعة ، ص 221 .

(168) يلقب صاحب الشرطة بالاندلس بصاحب المدينة (le prefet) وبالحاكم بافريقيّة وبالوالى بمصر في عهد المماليك .

وهؤلاء الأحداث لا يمثلون دوماً نفس الشرائح الاجتماعية فكانت تسيطر عليهم عناصر من العامة في الفترات المتأزمة (169) وفي غيرها كانوا يأتُمرون بأوامر الخاصة بل إنهم أصبحوا أحياناً في خدمة بعض العائلات الكبرى (170) التي منها كان رئيسهم الملقب برئيس البلد وقد بدأ نجم الأحداث في الأقول مع قيام دولة السلاجقة الذين جعلوا لكل مدينة كتيبة من الجيش النظامي على رأسها قائد يلقب بالشحنة .

(169) نذكر على سبيل المثال الأزمـة التي حدثت بدمشق لما دخلها الفاطميون سنة 363 هـ / 974 م .

(170) نذكر على سبيل المثال عائلة بني عمّار بطرابلس (لبنان) وعائلة بني نيسان بآمد (في العراق) في القرن السادس الهجري .

النظام المالي

ليس غرضنا أن نقدّم عرضاً تاريخياً عن النظام المالي في الإسلام لأن مثل هذا العمل يتجاوز مجهود الفرد خاصة وأنّ العالم الإسلامي انقسم إلى عدّة دول لها خاصيّاتها في كل الميادين بما فيها الميدان المالي ولذلك سنقتصر على عرض المسألة في خطوطها الكبرى فتهم بمؤسسة بيت المال أو ما نسميه اليوم خزينة الدولة .

ـ مؤسسة بيت المال ⁽¹⁷¹⁾ :

ترجع ولادة هذه المؤسسة الى فترة الرّسول بالمدينة إذ فيها ظهرت فكرة خزينة يجمع فيها أموال الزكاة وقسط من الغنيمة لتنفق على مستحقّيها ومن أجل المصالح العامة .

وقد تبلور مفهوم الأموال العمومية وإنفاقها في المصلحة العامة أيام عمر ويتجلى ذلك في حديثين الأول هو أنه رفض أن توزع اراضى العراق والشام

(171) يجب تمييز بين بيت مال المسلمين أي خزينة الدولة وبيت المال الخاصة أي خزينة الخليفة .

على المقاتلين وفضل أن يقفها على مصالح المسلمين فتركها لأصحابها العاملين بها مكتفيا بأخذ الضريبة على الأرض (الخراج) لفائدة بيت المال ، والثاني هو إنشاؤه ديوان العطاء الذي منه أصبحت تدفع أرزاق الجند ، وبتقدم الزمن أكملت هذه المؤسسة وأصبح لها تنظيمها .

ـ تنظيم بيت المال ـ

إن العاملين ببيت المال يستمدّون جميعا نقودهم من الإمام (الخليفة) الذي هو رئيس المؤسسة فيفوض لهم تدبير شؤونها وفي مقدّمة العاملين بها صاحب بيت المال المكلف بجبي أموال الدولة وصرفها ومراقبة الموظفين ، ويشترط في صاحب بيت المال أن يكون مسلما حرا (لا عبدا) موسوما بالعدالة (لا جرح في أخلاقه) خبيرا بالشؤون المالية وقادرا على الاجتهاد في تحديد مقدار الضريبة التي ليس فيها نصّ (القرآن ـ السنة) ، وتحت صاحب بيت المال أعوان يمكن أن يكونوا من العبيد أو أهل الذّمة شريطة إلّا يهتم الذميّون منهم إلّا بالضرائب على أهل دياناتهم ، أمّا الوثائق والسجلات وحسابات الخزينة فلها مصلحة إدارية خاصّة بها على رأسها كاتب الديوان الذي تشترط فيه الحنكة والعدالة فقط .

هذا هو الإطار العام لكننا نعرف أنّه بتطوّر الدولة شملت هذه المؤسسة عدّة مصالح إدارية كان على رأس كل منها مشرف (172)

(172) انظر ما قلناه عن الدواوين المالية .

موارد بيت المال ،

1 - الزكاة : وتسمى أيضا الصدقة :

هي أول ضريبة إسلامية فرضت على أصحاب الأموال من المسلمين فقط . وقد ضبطت مصارفها في القرآن ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليهم حكيم، (173) . والمقصود بالعاملين عليها جباة الزكاة وبالمؤلفة قلوبهم أولئك الذين كانوا في صدر الإسلام يتظاهرون باعتناق الدين الإسلامي من الأقوياء فاقتضت الظروف استرضاءهم وتأليف قلوبهم النافرة برفع سهم من الصدقة إليهم ترغيبا لهم في اعتناق الدعوة ، إلا أن هذا السهم قد ألغى بعز الإسلام ورأى عمر بن الخطاب حذف حصة المؤلفة قلوبهم اجتهدا شخصيا منه ، وبالرقاب العبيد الذين تعاقدوا مع ساداتهم على تحرير رقابهم مقابل مقدار من المال فتدفع الدولة هذا المقدار من موارد الزكاة لتحريهم وبالغارمين الذين ركبهم الدين فلم يستطيعوا الوفاء به فتعين لهم الدولة مقدارا من المال يساعدهم على الوفاء بديونهم .

والزكاة على أنواع : زكاة على أموال التجارة وزكاة على الذهب والفضة وزكاة على الزروع والثمار وزكاة على المواشي والأنعام .

ويشترط لإخراج الزكاة شرطان :

أ - ملك النصاب الذي يختلف باختلاف هذه الأنواع المذكورة

ب - مرور عام على الأقل على ملكية هذه الأموال

أما مقادير الزكاة فهي أيضا تختلف باختلاف الأموال (174) فزكاة أموال

(173) سورة التوبة 9 الآية 60 .

(174) قدر الفقهاء الحد الأدنى بـ 200 درهم .

التجارة لا تزيد ضريبتها على ربع العشر وكذلك زكاة الذهب والفضة وفي زكاة الزرع والثمار قصر بعض الفقهاء الضريبة على الحبوب وعممها آخرون على الخضر والبقول فضلا عن الحبوب ، وهي على قسمين :

ما سقي بالمطر أو من ماء الأنهار بصورة طبيعية وفيه العشر .

ما سقى بعمل الإنسان (الأبار) وفيه نصف العشر .

وفي زكاة المواشى (الإبل والغنم والبقر دون الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت هذه من أموال التجارة) تفصيل دقيق في كتب الفقه خلاصته أن النصاب في العدد خمس في الإبل وثلاثون في البقر وأربعون في الغنم وأنه كلما زاد عدد المواشي زاد مقدار الزكاة .

2 - الغنيمة :

الغنيمة مال من أموال سكان البلاد المفتوحة عنوة أي على وجه الغلبة وحين تجمع الغنائم ⁽¹⁷⁵⁾ يقسمها الإمام خمسة أخماس يبدأ بإخراج خمس منها يقسمه هو الآخر خمسة أسهم بين مستحقيه المذكورين في القرآن واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل " ⁽¹⁷⁶⁾ والمقصود بنى القربى حسب المفسرين ذوي قربى النبي ويرى بعضهم أنها قریش كلها ويرى آخرون أنهم بنو هاشم أو بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، أما الأخماس الأربعة الباقية فتكون ملكا للغانمين فيعطى للفارس سهمان أو ثلاثة وللرجل سهم واحد . فنصيب بيت المال من الغنيمة إذن هو الخمس .

(175) الغنيمة تشتمل على : الأسرى والسبياء (النساء والأطفال) والأراضي والأموال ولكن عمر كما قلنا أخرج الأراضي من الغنيمة وجعلها فينا على المسلمين .

(176) سورة الأنفال - الآية 41 .

3 . الخراج :

ضريبة فرضت على الأرض في البلاد المفتوحة وكانت مقداراً من حاصلات زراعية أو أموال نقدية يدفعها أصحاب الأرض من أهل الذمة وليست هذه الضريبة من الأمور التي أحدثها المسلمون إذ كانت تدفعوا إلى الدولة الساسانية أو البيزنطية قبل الفتوحات لكن الذي يلفت الانتباه هو أنها لم تسقط لما أسلم أصحاب الأرض وإنما سقطت عنهم الجزية ⁽¹⁷⁷⁾ فكان عليهم ان يدفعوا الخراج فضلاً عن الزكاة وقد علل الإبقاء على الخراج بكونه نوعاً من الفئ الدائم لفائدة الأمة لكن السبب الحقيقي هو أن إسقاط الخراج لو تم لحُرمت خزينة الدولة من أكبر قسط من مداخيلها .

أ - تقدير الخراج :

عين مبلغ الخراج بطرق مختلفة :

الطريقة الأولى : المساحة : الجريب بإيران والعراق والفدان بمصر ⁽¹⁷⁸⁾ وفي أقاليم أخرى كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية كانت وحدة التقدير المساحة التي يكفي لفلاحها ثوران وهذا التقدير الأخير يشير مشكلة لأن المساحة تختلف بحكم الموقع ونوع التربة فكان لا بد من إعادة النظر فيها حتى تكون الضريبة على قدر عطاء الأرض .

وبالإضافة إلى المساحة اعتبرت طريقة الري (السقي بالمطر - السقي بالقنوات من الأنهار - السقي بالأبار) ودرجة الخصوبة المقدرة حسب معدل المحصول الزراعي مدة ثلاث سنوات .

(177) الجزية ضريبة على الراس وسنعود إليها في الصفحات الموالية .

(178) الفدان أقل من نصف هكتار بقليل والجريب يساوي تقريباً 1400 م² .

وهذه الطريقة كانت قاسية على الفلاحين ذلك أن معلوم الخراج لا يتغير سواء أغلت الأرض أم لا وسواء كان المحصول الزراعي وافراً أو قليلاً وفي عام القحط ترحى الدولة الضريبة إلى العام الموالي فتثقل كاهلهم وإذا ما توالى السنين العجاف تركوا أرضهم ونزحوا إلى المدن .

الطريقة الثانية هي المقاسمة وهي أن تأخذ الدولة قسطاً من المحصول الزراعي أو ما يعادله نقداً والمقاسمة أهون على الفلاحين شريطة ألا يرتفع معلوم الخراج في سنوات الخصب .

الطريقة الثالثة من الإيغار وفيها يكون مورد الخراج مقدار من المال عينا أو نقداً لا يتغير إذ لا يعتبر في وضعه لا المساحة ولا المحصول الزراعي ويدفع هذا المقدار إلى بيت المال مباشرة كل سنة دون تدخل العمال وأعوانهم ، والمستفيدون من الإيغار الأمراء بالأقاليم (districts) التي لا تسيطر عليها الدولة سيطرة كاملة . فهؤلاء يجبون خراج أقاليمهم دون مراقبة ولا يسلمون إلى الدولة ، إلا المقدار المتفق عليه . هذه الطريقة تمثل خطراً على " الدولة " لأنها تخلت عن مراقبة الجباية وعن إحصاء موارد بعض الأقاليم .

أنواع الإقطاع :

على أن الخطر كان أعظم لما تخلت " الدولة " عن حقوق بيت المال وذلك بالخصوص في قطاع الاستغلال ، ولنفهم ظهور هذا النوع من الإقطاع يحسن التذكير بأنواع الإقطاع في تاريخ الاقتصاد الإسلامي . ظهر الإقطاع منذ القرون الأولى فكان الخليفة يعطي الرجل من بني ذوية أو الأعيان أو المقربين إليه أرضاً من أملاك الدولة على أن يؤدي المقطع العشر ، وتسمى هذه الأرض المنوحة قطيعة (والجمع قطائع) ويعرف هذا النوع من الإقطاع بإقطاع التملك إذ القطيعة تبقى لعقب المستفيد من بعده وكان ثم إلى جانب القطيعة ما يسمى بالطعمة وهي الأرض التي تعطى إلى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها وتكون له مدة حياته فإذا مات استرجعت من ورثته .

وبمرور الزمن استحال الاستمرار في توزيع القطائع نظرا إلى ازدياد عدد الأعيان وأمراء الجيش فعمدت الدولة إلى إقطاع الاستغلال فكان المستفيد لا يعطى قطيعة وإنما تسمح له الدولة بأخذ خراج أرض تبقى قانونيا بأيدي أصحابها وذلك تعويضا ، عما يؤديه من خدمات إلى الدولة . ويطلب منه دفع العشر من مال الخراج هذا ولكن لما كان أغلب المستفيدين في الدولة البويهية من أمراء الجيش بات من الصعب على الدولة أخذ العشر منهم . وهكذا كان إقطاع مال الخراج المقدّر حسب مساحة الأرض ومردودها (179) بمثابة أجر معفى من الضرائب يأخذه الأمير من أمراء الجيش مباشرة من أصحاب الأرض .

وإقطاع مال الخراج غير قارّا إذ يسند خراج أرض ما إلى أمير لمدة سنة أو أكثر ثم يسند إلى غيره من الأمراء وكانوا جميعا يسكنون بالمدن لا يهتمهم من الأرض سوى خراجها ولذلك كانوا يثقلون أصحابها العاملين بها بالضرائب الباهظة فينفرونهم من خدمتها . يتضح إذن بما تقدّم أنّ الدولة لم تتخلّ عن حقوق بيت المال فقط بل ساهمت في خراب الأرض وفساد العمران .

وقد تفسّيت إقطاع الاستغلال (180) في أيام الدولة البويهية وتبنّاه السلاجقة الذين أدخلوه حتّى في الأقاليم التي لم يكن بها أيّام البويهيين وأعنى خاصّة منطقة خراسان وبلاد ما وراء النهر وفي أيّام الدولة الزنكية (541 هـ - 661 هـ) بالشام أصبح إقطاع الاستغلال وراثيا وكان الغرض من هذا الإجراء توطيد علاقة أمراء الجيش بالدولة في صراعها ضدّ الصليبيين . وفي أيّام السلاطين الماغوليين المسلمين بإيران (يسمون الإخانات ، جمع إخان) اتخذ إقطاع الاستغلال اسمين : سيورغال إذا كان الإقطاع وراثيا وتيول إذا كان لمدة معينة . وفي مصر ظهر إقطاع الاستغلال في أيام الأيوبيين وتواصل العمل به في دولة المماليك وكان المقطعون من قوّاد الجيش مطالبين بتجهيز عدد من

(179) يسمى هذا التقدير العبرة .

(180) يطلق على إقطاع الاستغلال عبارة الإقطاع العسكري لأن أغلب المستفيدين منه من قوّاد الجيش .

الجند ولذلك قيل إقطاع عشرين (أي إقطاع مال الخراج لقائد يجهز عشرين جندياً) أو إقطاع مائة إلى غير ذلك . على أن هذا العدد كان أقلّ ممّا تحت قيادة كلّ منهم وفي المغرب الإسلامي لم تعرف الأندلس إلا إقطاع التملك وكذلك الشأن في بقية المغرب الى أن جاء الموحّدون فأدخلوا إقطاع الاستغلال في مملكتهم وعندهم أخذ الحفصيون والمنتفعون به في أيامهم كبار الدولة وقواد الجيش ورؤساء القبائل التي كانت تسيطر على جزء هام من إفريقية (181) ورجال الدين وأحياناً الفقراء .

ب - مقدار الخراج :

اتفق جلّ الفقهاء على أن للخليفة أن يرفع معلوم الخراج أو ينقص منه حسب ما تتحمّله الأرض وحسب قدرة الفلاحين على الدّفع فكان هذا المعلوم يختلف من فترة الى أخرى ومن بلد إلى آخر وممّا لا شكّ فيه أن ضريبة الخراج كانت ثقيلة (182) وزادها ثقلًا جور العمّال وأعوانهم الذين كانوا يأخذون أموال الناس بالباطل وقد أدّى كلّ هذا الى فرار الفلاحين من أراضيهم أو إلى ما يسمّى بالإلجاء وهو أن يكتب الرّجل أرضه باسم أحد الكبراء ليحتمي به من ظلم العمّال فيقوم الملجئ بدفع الخراج وتبقى الأرض بأيدي أصحابها الفلاحين إلى أن تصير غالباً ملكاً له وبذلك يضيف ضياعاً جديدة إلى أراضيّه .

طرق استيفاء الخراج :

كان استيفاء الخراج يتمّ بطرق متعدّدة : الأولى أن يتولّى العمّال أخذ الجباية من الفلاحين والثانية أن يدفع المستفيدون من الإيغار المقدار المعيّن من

(181) كان رؤساء القبائل يقطعون مال الخراج على الأراضي وكذلك جباية المدن وهذا دليل على ضعف الدولة .

(182) يرى بعض الفقهاء أن القاعدة التي يجب الانطلاق منها لضبط مقدار الخراج العشر ولكن قلما عمل بهذه القاعدة فكانت الضريبة تفوق هذا المقدار بكثير .

المال مباشرة الى الخزينة والطريقة الثالثة هي تضمين الخراج فكان الخليفة (أو الوزير) يطلب من أحد الأغنياء أن يقرض الخزينة مالا مقابل خراج ناحية يأخذه لنفسه وهذا المقرض لا يكفي باسترجاع ماله بل يحرص على أن يفوق مقدار الخراج المال الذي قدّمه للخزينة ليحتفظ بالفاضل . وتضمن الخراج الذي بدأ العمل به في خلافة المعتصد (ولي الحكم من 279 الى 289 هـ) دليل على أن النفقات تجاوزت المداخيل أو بعبارة أخرى على انخرام في ميزانية الدولة اضطرّها الى الاقتراض .

الطريقة الرابعة : القبالة وهي أن يضمن الرجل من ذوي الجاه والسطان مسبقا للدولة خراج إقليم مقابل قسط من هذا الخراج يأخذه لنفسه والفرق بين تضمين الخراج والقبالة هو أنه في الحالة الأولى يقرض الغنيّ الدولة مالا يسترجعه من الخراج وفي الحالة الثانية يتعهد المتقبل فقط استيفاء الخراج عوضا عن الدولة ويبقى لنفسه منه قسطا .

وتضمن الخراج والقبالة سبب من أسباب فساد العمران . قال أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في القبالة فإنّ المتقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم وظلمهم [....] وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعيّة والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصالح أمره في قبالته " (183) . وهذا القول ينطبق كذلك على تضمين الخراج لأنّ المستفيد منه لا يبالي بحال الفلاحين وإنّما همّه الحصول على الربح الذي يوفره الفضل عن الخراج .

(4) الجزية :

والجزية هي مبلغ معيّن من المال يوضع على الرؤوس لاعلى الأرض وهذا أهمّ فرق بينها وبين الخراج ومن الفروق بينها وبينه أيضا أن الجزية تسقط بالإسلام في حين لا يسقط الخراج باعتراف الدين الاسلامي .

(183) كتاب الخراج - المكتبة السلفية - الطبعة الثانية - القاهرة 1952 ص 105 .

وقد علّل القدامى فرض الجزية على أهل الذمة بمبدأ التكافؤ. وقال أبو يعلى نقلا عن القرطبي الجزية وزنها فعلة من جزى يجرى إذا كافأ عما أسدي إليه " (184) فالذميون ينتفعون بالمصالح العامة وينعمون بالأمن كما أنهم في حالة الحرب لا يشاركون فيها وفي المقابل يدفعون الجزية وفي الخلافة الرّاشدة كانت الجزية جزءا من الضريبة المفروضة على أهل البلاد المفتوحة والتي تضمّ الضريبة على الأرض والضريبة على الرؤوس وذلك لأن الإسلام ورث هذه الضريبة الجمالية عن البيزنطيين والساسانيين ثم فصلت الجزية عن الخراج على النحو التالي :

- الأغنياء وقيمة ما يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما .
- متوسطو الحال ويؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما .
- الفقراء ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما ولا تؤخذ الجزية من كل أهل الذمة إذ يشترط فيمن يدفعها أن يكون حراً (لا عبدا) وعاقلا (لا مجنونا) وذكرنا تجاوز سن الصبا والا يكون مصابا بعامة عن العمل أو راهبا من الرهبان في الأذيرة .

والمقدار المذكور هو ما رآه أبو حنيفة وقد منع اجتهاد الولاة فيه أما الشافعي فيرى أنه لا يجوز الاقتصار على أقل من دينار بالنسبة إلى الفقراء وترك تقدير الجزية بالنسبة إلى الأوساط والأغنياء إلى اجتهاد الوالي الذي يجتهد في التفضيل حسب أحوالهم (185) .

- (5) الخمس مّا يسميه الفقهاء بالركاز وهما مال وجد تحت الأرض سواء أكان مّا ركزه الله في الأرض (أي المعادن) أم أم كان كنزا تركه بعض الناس .

(184) أبو يعلى الفراء في كتابه الأحكام السلطانية - تحقيق محمد حامد الفقى طبعة البابي الحلبي 1356 هـ / 1938 م ص 137 .

(185) الأحكام السلطانية للماوردي - الطبعة المذكورة - ص 144 .

(6) الموارث الحشرية : أي الأموال التي لا وراث لها شرعا والتي تضم الى بيت المال .

(7) الصوافي وهي الأراضي التي جلا عنها أهلها عند الفتح وبقيت بدون مالك فأصبحت من أملاك الدولة يرجع دخلها الى بيت مال المسلمين .

المكوس :

لكن هذه الموارد لم تكن هي كل موارد خزينة الدولة فقد استحدثت ضرائب أخرى اعتبرها الفقهاء غير شرعية ولكنها كانت أمرا واقعا وقد أطلقت عليها أسماء عديدة : رسوم وظائف . قبالة ومكوس . وفي الحقيقة فإن أغلب هذه الضرائب كانت موجودة في البلدان المفتوحة وفي أول الأمر اكتفت الدولة الإسلامية بأخذ الخراج والجزية ثم أحييت المكوس القديمة وأضيفت إليها أخرى .

ويمكن أن تقسم هذه المكوس الى ثلاثة أصناف :

- الصنف الأول : الرسوم التي كانت تؤخذ بالمرصد البحرية (الموانئ) والنهرية والبرية وبأبواب المدن وهي عبارة عن رسوم جمركية يدفعها التاجر المسلم اذا ما نزل في طريقه إلى بلد ما بمواني أو محطات تابعة لدول إسلامية مختلفة .

الصنف الثاني : ضرائب وضعت على الأسواق .

وهو صنف من المكوس يتم بعنوان الإيجار فالدولة تعتبر أن أرض المدينة أو جزءا منها ملك لها وأن على أصحاب العقارات المبنية في هذه الأرض دفع أجرة كراء الأرض وقد وضعت هذه الغريبة على المحلات التجارية وكذلك على المنازل .

الصنف الثالث : ضرائب على الصناعات وخاصة منها ضاعة البضائع الكمالية كالنسيج الجيد بمصر .

إنّ هذا التصنيف لا يعني أننا استقصينا كل أنواع الرّسوم (186) ومن جهة أخرى لا يجب أن ننظّر أنّ جميع أنواع المكوس المذكورة كانت تؤخذ في كل بلدان العالم الإسلامي وفي كل مراحل تاريخه ثم إنّ قدر الضريبة كان يختلف من جهة الى أخرى ومن زمن الى آخر ، فمصر عرفت بأنها أرض المكوس في تاريخها القديم ، وفي أيام الإسلام الأولى اكتفت الدولة بأخذ الخراج والجزية ، وفي النصف الثاني من القرن الثالث أعيدت المكوس (187) ومع هرم الدولة الفاطمية لم يسلم بمصر من المكوس إلا الهواء (188) ثم جاءت الدولة الأيوبية فأسقط صلاح الدين جزءا منها (من المكوس التي أبقاها ضريبة الديوانة التي تحدّث عنها ابن جبير) ولكن أعيدت كلها في عهد خلفه .

وفي العراق كانت الرسوم أقل وطأة الى أيام البويهيين الذين أثقلوا كاهل الناس بالضرائب (189).

وبصفة عامة فإن الدولة إذا ما كانت في ضيق مالي وضعت ضرائب جديدة أو رفعت معلوم القديم منها وإن كانت في سعة أسقطت بعض هذه الضرائب أو خففت من مقدارها ، ولنا في كتب التاريخ القديمة ملاحظات يمتدّ فيها حاكم لانه أسقط كلّ المكوس (190) تقيّدا بالشرع وسعيا لكسب السمعة الطيبة ولكن بعد موته أو حتى قبلها تعود الحالة كما كانت عليه لأن

(186) من الرّسوم التي جرت بها العادة الرّسوم على الأرجاء والمعاصر .

(187) تقول الروايات ان المسؤول عن أخذ مال سوى مال الخراج بمصر هو ابن المدبّر الذي كان عاملا بها في النصف الثاني من القرن الثالث .

(188) المقرئزي . المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . القاهرة 1922 . ج ١ - ص 103 .

(189) من الرسوم التي فرضها عضد الدولة (ت 372 هـ) ضريبة على بيع الدواب .

(190) من الامثلة نذكر مثال الخليفة الفاطمي بمصر الحاكم بأمر الله (ت 411 هـ / 1021 م) .

الامر يتعلق في الواقع بحال خزينة الدولة . بقي سؤال في أمر هذه المكوس هل كانت كلها راجعة الى بيت المال العامة .

يصعب الإجابة عن هذا السؤال لأن الوثائق التي وصلتنا عن مداخل الدول الإسلامية قليلة⁽¹⁹¹⁾ ولأنها قلما تتضمن المكوس ، ولكن إذا تذكرنا أن من مبادئ الإدارة المالية الإسلامية أداء المصاريف المحلية (المدينة ، الولاية) من المداخل المحلية اتضح أن قسما فقط من المداخل بما فيها المكوس كان يرجع الى بيت المال العامة سواء لما كانت مملكة الإسلام موحدة أو فيما بعد لما انقسمت الى عدة دول لكل منها بيت مال .

وأخيرا إلى جانب المكوس كانت المصادرات وسيلة من الوسائل غير القانونية لتمويل خزينة الدولة أو خزينة الخليفة والسلطان ، وفي الأول كانت المصادرات مقصورة على العمال ثم شملت كل الذين لهم صلة بالسلطة وحتى كبار التجار ، فكان حكام مصر من الإخشيديين (دام حكمهم من 324 إلى 359 هـ) يقبض الواحد منهم على عماله وخاصته وثقافته ويصادرهم على المبالغ الكثيرة هم وأهلهم ، وإذا توفي قائد من قواده أو كانت تعرض لورثته وأخذ منهم وصادروهم وكذلك يفعل مع التجار الميسير وكذلك كان الأمر في أيام البويهيين إذ مثلاً مات الوزير أبو محمد المهلب عام 352 هـ / 963 م بعد أن لبث في الوزارة ثلاث عشرة سنة قبض معز الدولة تركته وصادر عياله . وخوفا من المصادر كان أهل المال يستعملون جميع الوسائل لإفساد خطة المصادرين وخذاعهم فمن ذلك أنهم كانوا يتظاهرون بالفقر ويودعون أموالهم عند ناس كثيرين⁽¹⁹²⁾ .

(191) يورد آدم متز (Adam Metz) في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده) ملاحظات حول ميزانية الدولة العباسية .

(192) نفس المرجع ص 201 إلى 205 .

